عقول وعقول

قليني نجيب

حوار العقل والنقل

بيانات الكتاب

إسم الكتاب: عقول وعقول (وموضوعات أخرى)

إسم المؤلف: قليني نجيب

الترقيم: (ASIN : B087Z4BS8C).

الموضوعات

لم يصبح أينشتاين عالماً فذاً في مجال الفيزياء لأنه ولد من أبوين يهوديين، ولا لأنه حفظ الوصايا العشر منذ نعومة أظفاره؛ ولا لأنه مارس الطقوس والفرائض اليهودية طقساً بطقس، وفرضاً بفرض. ففي هذا المضمار، يتفوق عليه أقل الربانيين علماً وأدناهم تقوى؛ ولكنه وصل الى ما وصل اليه لأنه تلقى العلوم الطبيعية في مراحل التعليم المختلفة. ولأنه عمل في مكتب براءة الإختراع بسويسرا، والذي أتاح له فرصة الوقوف على آخر ما قُدم من بحوث وإكتشافات. ولأنه أحب العلم، وجدَّ في سبر أغواره، وغاص في بحاره، ونهل من معين أسراره.

ولم يبلغ ما بلغه من العلم لأنه ينتمي الى جنس معين، بل لأنه تربى على حرية التفكير في بلد تقدم فيه العلم–مثل باقي دول أُوربا–بفضل جهود أجيال من علماء ومفكرين منذ أقطاب الإيونية والأثينية وحتى عصره، مروراً بإسهامات كوبرنيقوس البولندي، وجاليليو الإيطالي، وكبلر الألماني، ولافوازييه الفرنسي، ونيوتن الإنجلتري، وهوبيل الأمريكي، وماكسويل وفاراداي، وغيرهم.

ولم يصل أينشتاين إلى ما وصل إليه لأنه أُوتي عقلاً مختلفاً عن عقول الناس، كما يظن البعض. فإن العقل هو أعدل الأشياء قسمة بين البشر. ويوجد من يصونه ويرعاه، ويربيه على التفكير الحر، ويدربه على البحث والإستنتاج والإستدلال والنقد والتحليل. وهناك من يحبسه في خزانة الغيبيات والمرويات. ويربيه على الحفظ ثم الحفظ. وينهاه عن التفكير، ثم عن التفكير. ويقف له بالمرصاد إذا تجرأ على النظر والتساؤل، حتى جرى القول: "أن من أحيا عقله، قد أمات نفسه". ولهذا عُذِّب من عُذِّب، وسُجن من سجن، ونُفي من نفي، وقُتل من قتل، وحُرق من

حرق، وصُلب من صلب، كعبد الله إبن المقفع، وغيلان الدمشقي، والجهم إبن صفوان، وابن عربي، وابن سينا، وابن رشد، وكوبرنيقوس، وجاليليو، وفرج فوده، ومحمد محمود طه، وغيرهم ممن فكروا وجهروا بما يفكرون به، مما عجز عن مجابهته المتألهون، وخار عن مباراته الجاهلون.

وصدق في الأولين قول البحتري:

أري العقل بؤساً في المعيشة للفتى .. وما حياة إلا ما حباك به الجهل.

وصدق في الآخرين قول الشاعر:

جهلتَ وما تدري أنك جاهلٌ .. فمن لي أن تدري بأنك لا تدري.

وليس للعلم جنس ولا لون ولا دين. وأنه من الغريب الذي لم يعد غريباً، ومن العجيب الذي لم يبق عجيباً، أن نُقحم الدين في العلم. فنحن فقط من نتحدث عن الإعجاز العلمي؛ ومن نصنف العلماء تصنيفاً دينياً. ليس من أحد يقول: العلماء البوذيين، والعلماء الهندوس. نحن فقط من نُصنفهم تصنيفاً دينياً: في كتبنا، وفي خطبنا، وعلى أرائك قصورنا، وكراسي مقاهينا، ومصاطب حوارينا. وفي منتداياتنا الثقافية، وفي ندواتنا العلمية.

نقول ذلك ونحن لا ندري أننا نسخنا علوم الكفار من المصريين والإغريق والبابليين والفرس والهنود والسوريان، ثم من كفار أُوربا. لا ندري أن من درسوا ذلك وطوعوه، وأضافوا إليه، كانوا كلهم من أُصول أعجمية؛ وأنهم ولدوا ونشأوا وتربوا على ثقافات غير ثقافتنا، وعلى علوم غير علمنا، وفي بلاد لم تكن لنا؛ قبل أن نجرد اليها خيولنا؛ وقبل أن نُعمل في رقاب رجالها سيوفنا؛ وقبل أن نجلب منها

رقيقنا وأمهات أولادنا. في خراسان وفارس والشام والعراق ومصر وأسبانيا وشمال إفريقيا وغيرها.

ولما فرغنا من استعداء الدنيا ومن شن الحروب ضد كل شعوب الأرض، رحنا نستعدي العقل. فهو عند بعضنا: الحمار الذي يتعين تركه قبل الدخول الى دوار العمدة. وعند البعض الآخر: هو الحذاء الذي يتعين خلعه قبل الدخول الى بيت العبادة. وهو الشيطان الذي إذا فكر، ضل؛ وإذا تمنطق، تذندق. ومتى جاهر بفكره، حل في صاحبه ما يحل في أهل الشقاق والنفاق.

إن أخطر من يهدد الإنسانية اليوم هم المستبدون بالرأي، والمتألهون عن جهل، الذين يقحمون الماورائيات في التجريبيات، والغيبيات في المبرهنات. ويعلنون الوصاية على العقل. ويعادون كل رأي يخالف رأيهم، وكل قول يخالف قولهم، وكل عِقد يخالف عِقدهم، وكل تاريخ يخالف تاريخهم، وكل تراث يخالف تراثهم، وكل إيمان يخالف إيمانهم. من يرون أنهم على حق وكل الدنيا على باطل؛ من يعتدون بالموروث حتى وإن خالف العقل والمحسوس، وجافى الضمير والفطرة، والإنسانية برمتها، وتعارض مع مقاصد الباري تبارك وتعالى. من يستبيحون لأنفسهم ما يأبوه على غيرهم؛ من يريدون أن يهيمنوا على كل شئ في الوجود.

أما العالم الحقيقي، فهو من يبني علمه على طرق البحث العلمي، وليس على القيل والقال، فلا يُسلم بالمنقول تسليم الجاهل والمخبول؛ بل يفحصه من كل جوانبه، حتى يتبين له صحة ما يأتيه من كذبه. فإذا تبين له الصدق، شكر مبلغه وأقبل، وإذا تبين له الكذب، تركه وأدبر.

ومتى تثبت له بطلان أمر من الأمور، فلا يقبل بصحته قبول المضطر والمجمبور، حتى وإن أجمعت عليه البشرية برمتها. فهو ينظر بعين العقل–وليس بعين المجموع–في كل ما يرى ويسمع ويقرأ. فيبسطه ويأخذ منه ما وافق وتيسر؛ ويرفض ما خالف وتعسر، مما يجافي الفطرة وينافي العقل والضمير.

العالم يبني علمه على صخرة التجربة والبراهين المنطقية، والجاهل يبني معارفه على رمال العواطف من خلال السفسطة والخطابة وعلو الصوت ودغدغة المشاعر. والأول لا يخشى على علمه من سهام النقد التي تتحطم على صخرة الحقيقة، والثاني يرتعد من رياح النقد التي تكشف حجب المتواري. ولذلك فهو لا يجد أمامه سوى العنف لمواجهة المخالفين له والمختلفين معه. وذلك منتهى الضعف: الضعف الروحي والضعف المنطقي.

وإنطلاقا من أُحادية التفكير وثنائية المعايير، فإنه يسمح لنفسه بأن يكيل الطعون فيما يراه مدعاة للنقد عند الآخرين، مما لا يسئ لأحد ولا يُضير، بينما يأبى على الآخرين أن يُعملوا العقل فيما يروه داعياً للنقد عنده مما يدعوا الى الكراهية والتحقير. فهو يرفض أن يزن بضاعته بنفس الميزان الذي يزن به بضاعة الآخرين، ويرفض أن يكال له بذات المكيال الذي يكيل لهم به !

ويختلف العالم والرديكالي حول القيم الإنسانية كالحق والعدل والرحمة والحرية والتسامح، وغير ذلك. فيرى الأول ان تعدد الزوجات ظلم للمرأة، بينما يراه الثاني حق للرجل. ويرى الأول ان تحديد النسل ضرورة ملحة، بينما يرى الثاني أن "العيل بيتولد برزقة". على الرغم من المجاعات التي تهدد العالم. يرى الأول ان غزو الشعوب إعتداءً آثماً، بينما يراه الثاني فتحاً غانماً. يرى الأول أن دماء الناس

متساوية، بينما يرى الآخر أن المؤمن لا يؤخذ بمن يحسبه كافرا، وهو يجهل حقيقة إيمانه. يرى الأول أن السبي والإسترقاق ظلم مبين، بينما يراه الآخر العمل القمين... الخ

ويختلف الرديكالي عن العالم في منهج التفكير وفي مادته: الأول يؤمن بالغيبيات، والثاني يبحث في الطبيعيات. الأول يسعى لفتح أبواب الجنة أمام أبناء ملته، والثاني ينفع كافة الناس بعلمه وجدته. فكل الناس يستعملون منتجات العلم: الدواء، والسيارة، والقطار، والطائرة، والتليفون، والثلاجة، والتكييف، وغيرها.

العالم صنع المركبات الفضائية، وعرف أبعاد النجوم، وقاس المجرات. والرديكالي يعلم الناس أن الأرض محمولة على ظهر مارد، وأن من قال أنها تدور حول الشمس وحول نفسها فهو كافر، يستتاب وإلا قتل.

العالم تقدم في بحوث الطب والجراحة والصيدلة والأمصال، وأجهزة الكشف الطبي؛ والثاني يعتقد أن بول البعير هو خير دواء لكل مرض وداء.

وإذاء هذا التناقض بين الإثنين، يلجأ الرديكالي الى سلاحه المعروف والمألوف: التكفير والمصادرة والقمع والإضطهاد. ولكنه هو من يخسر في نهاية المطاف، حتى وإن حقق بعض المكاسب الوقتية. وبخاصة ونحن نعيش في عصر، بات كل شئ فيه معلوماً ومكشوفاً. فقد هبت رياح الميديا، وكشفت المستور، وأزاحت الرياح عما أخفته أغلال الدهور.

من الأخطاء الشائعة بين بعض الناس أن بني اسرائيل هم الذين بنوا الأهرامات؛ وهو إدعاء لا يمت للواقع التاريخي بصلة، لا من قريب، ولا من بعيد. وذلك لعدة اسباب:

أولها: أن أول الأهرامات وهو هرم الملك زوسر، رأس الأسرة الثالثة، قد شيده له المهندس إمحوتب قبل نحو أربعة الآف وستمائة وخمسين سنة. وأن باقي أهرامات الدولة القديمة مثل هرم (حوني) بميدوم، وهرم(سنفرو) بدهشور، وأهرام (خوفو) و(خفرع) و(منكاو-رع) بالجيزة؛ وأهرام(جد-إف-رع)، و(ني-أوسر-رع)، و(نفرر-كا-رع) بأبي صير؛ وأهرام(ساحو-رع)،و(أوناس)، و(تيتي) بسقارة؛ قد بنيت جميعها قبل القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، أي قبل مولد ابراهيم- الجد الأكبر لليهود والإسماعيليين-بعدة قرون.

أما أهرامات الدولة الوسطى فقد شيدها ملوك الأسرتين الحادية عشر والثانية عشر في اللشت واللآهون قبل القرن السابع عشر قبل الميلاد؛ أي قبل أن يولد ليعقوب ولد.

ثانيا: إن الشروع في تسخير بني اسرائيل في الفترة التي ولد فيها موسى كان بعد مرور أكثر من قرنين من قدوم يوسف وإخوته حيث تكاثروا، أي بعد زمن الأهرامات بعدة قرون. كما أن سفر الخروج ذكر أن إقامتهم في مصر كانت محدودة بفترة معينة وبمنطقة محددة هي أرض جاسان بشرق الدلتا، وهي بعيدة تماماً عن أماكن وأزمنة بناء الأهرامات.

ثالثا: أن سفر الخروج ذكر أن بني اسرائيل سُخِّروا في عمل اللبن لبناء مدينتي مخازن: واحدة تسمى فيثوم، والأخرى تُسمى رعمسيس(خر1)، أي في زمن الدولة الحديثة؛ بينما أن الأهرامات شُيدت بالحجر الجيري والجرانيت في عهد الدولتين القديمة والوسطى.

وهنا أوكد على حقيقة هامة وهي أن تحامل أحد ملوك مصر على بني إسرائيل لا يشين العدلاء منهم، ولا يقلل من شأن الحضارة المصرية التي بناها المصريون ببراعة علمائهم، وبسواعد رجالهم؛ خاصة وأن فرعون نفسه لم يرفع حجراً واحداً. وقد بلغت مصر قمة التقدم العلمي والسمو التشريعي بمقاييس ذلك العهد على الرغم من وجود بعض المظالم والصراعات والإغتيالات التي وقعت بالفعل، وأدت الى تقلب الأسر الحاكمة على عرش البلاد، وتعرض مصر لبعض النكبات.

وذكرت المصادر العربية أن فرعون الذي عاصر خليل الله كان يدعى سلوان إبن علوان؛ وأن يوسف الصديق عاصر إثنين من ملوك الفراعين هما الريان إبن الوليد، وقابوس بن مصعب؛ وأن موسى عاصر قابوس بن مصعب هذا وأخاه الوليد بن مصعب، فقال الطبري في(تاريخ الأمم والرسل والملوك):

"وكان فرعون مصر في أيامه (في أيام موسى) قابوس بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني. وكانت إمرأته آسية بنت مُزاحم بن عُبيد بن الريان بن الوليد، فرعون يوسف الأول. وقيل: كانت من بني إسرائيل، فلمّا نودي موسى، أَعُلِمَ أن قابوس فرعون مصر مات، وقام أخوه الوليد بن مصعب مكانه".

ونلاحظ هنا أن الرواية العربية أعطت لأسماء الفراعين الذين عاصروا إبراهيم ويوسف وموسى أسماءً غير مصرية، لم ترد في تاريخ الفراعنة منذ بدأت الكتابة،

والى أن سقط حكم الفراعين بعد موت نقتنبو الثاني في القرن الرابع قبل الميلاد. فلم ترد هذه الأسماء، ولا ما يشبهها، في أثبات الملوك: لا في ثبت سقارة، ولا في ثبت الكرنك، ولا في ثبت أبيدوس، ولا في بردية تورين، ولا على حجر بالرمو، ولا على أي أثر من آثارهم المكتشفة حتى الآن. فأين الوليد ومصعب والريان ومعاوية من إخناتون وتحوتمس، وتوت عنخ آمون، ونـي أوسر رع ...الخ.

وذكرت المصادر العربية أن قابوس بن مصعب قد خلف الريان الذي مات في حياة يوسف. وأنه هو نفسه قابوس الذي أطال الله عمره حتى جاوز مولد موسى. وهو يخالف المعطيات التاريخية من عدة وجوه:

أولا: أن تعداد بني يعقوب الذين جاءوا الى مصر وقت المجاعة كان سبعين فرداً. وأنهم، لما شرع فرعون في إضطهادهم عند مولد موسى، أصبحوا شعباً كثير العدد بحيث باتوا مصدر قلق لفرعون ولرجال دولته. وهو ما يقتضي مرور عقود وأجيال. وقد أشار الى ذلك إبن الأثير في (الكامل في التاريخ)، قال:

"إن الله تعالى لما قبض يوسف، وهلك الملك الذي كان معه، وتوارثت الفراعنة مُلك مصر، ونشر الله بني إسرائيل، لم يزل بنو إسرائيل تحت يد الفراعنة...حتى كان فرعون موسى..".

وهنا يشير الى تعاقب فراعين من موت يوسف الى مولد موسى. وهو ما يتعارض مع القول بأن يوسف مات، وموسى ولد في زمن فرعون واحد هو قابوس بن مصعب.

ثانياً: تصديق إبن الأثير على ما جاء بالتوراة من أن ما بين يوسف وموسى قد مضت ثلاثة أجيال، قال: "هو موسى بن عمران بن يصهر(يصهار) بن قاهث (قهات) بن لاوي بن يعقوب".

وقال أبو الفداء، في (المختصر في أخبار البشر)، أن "جملة مقام بني إسرائيل بمصر حتى أخرجهم موسى مائتين وخمس عشرة سنة". فكيف يتسنى لفرعون أن يعيش كل تلك الأجيال والسنين؟!

ثالثا: إن موسى وهو في الأربعين من عمره رأى رجلاً مصرياً يتشاجر مع آخر عبراني، فإنحاز موسى الى إبن جلدته وقتل المصري، ثم لاذ بالفرار الى أرض مديان(مدين في لسان العرب). وظل بها حتى بلغ الثمانين. على أن فرار موسى خوفاً من بطش فرعون يشير الى أن فرعون هذا غير الذي تربي موسى في كنفه عندما إنتشلته إبنته من النهر. وكلاهما بخلاف فرعون الخروج الذي عاصر الضربات العشر، وطارد موسى، وأطبقت مياه البحر على جنوده. ومن ثم فنحن أمام عدة فراعين تولوا حكم مصر من زمن يوسف وحتى خروج بني اسرائيل.

رابعا: إن الرواة أخذوا من أهل الكتاب قصة يوسف وقصة موسى والخروج، والكثير من القصص التوراتية الأخرى والتي ذكرت تفاصل كثيرة؛ ولكنها لم تذكر أسماء الفراعين الذين عاصروا يوسف وموسى، والذين حكموا البلاد فيما بين موت الأول وولادة الثاني. لأن هدف التوراة ليس سرد تاريخ الفراعين وإنما عون الله للضعفاء والمقهورين.

خامساً: إختلاف الروايات في نسب إبني مُصعب فقال الطبري في تاريخه: "قابوس بن مصعب بن معاوية بن نمير إبن السلواس بن قاران بن عمرو بن

عملاق". وقال المسعودي في(مروج الذهب): "الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن أبي الهلواس بن ليث بن هران بن عمرو بن عملاق، وهو الرابع من فراعنة مصر".

وأضافت الرواية العربية: "أنه لما تقارب زمان موسى، أتى منجمو فرعون وحواته إليه فقالوا: إعلم إنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلّك زمانه الذي يولد فيه يسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويبدل دينك. فأمر بقتل كلّ مولود يولد في بني إسرائيل".

وهذا يذكرنا بما ورد بشأن ولادة السيد المسيح–وليس موسى–عندما جاء مجوس من المشرق وأخبروا هيرودس الكبير بأنهم رأوا آية ميلاد ملك عظيم في بيت لحم حيث توقف النجم. فأمر هيرودس بقتل الذكور من إبن سنتين فما دون.

ومن هنا يتضح لنا أن ما نقله المؤرخون المستعربون عن غيرهم في هذا الموضوع–وغيره–، بعضه صحيح ومنقول، وبعضه مضاف ومنحول، وبعضه متناقض وغير معقول. ولا يزال يردده بعض العلماء، وهو لا يصل العلم بصلة، ولا يقرب من البحث العلمي قيد أُنملة.

ولهذا فإني أُناشد علماء المصريات في العالم أجمع أن يراجعوا أنفسهم ويعيدوا بحثهم عسى أن يكشفوا لنا النقاب عن هرم كوهين، وقصر السلوان، ومسلة علوان، ومقبرة الريان، ومومياء الوليد إن أمكن !!!

يرجع الفضل الى الإغريق في وضع أُسس التفكير العلمي. وقد قُدِّر لأفكارهم أن تنتشر في مختلف أرجاء العالم. وربما لا يوجد علم من العلوم إلا وإستعان في نشأته، وفي طور تكوينه، وفي مراحل نضوجه بما خلفه لنا هؤلاء. فوضع فيثاغورس، وإقليدس، وأرشيميدس، مبادئ الهندسة والرياضيات. وأقر أبقراط وجالينيوس مبادئ الطب. وفي مدينة أفلاطون الفاضلة بنيت دعائم السياسة والتربية والإجتماع. وعلى منطق أرسطو أرست كل العلوم قواعدها.

وشرح لامفيدروس كتاب أرسطو في النفْس. ونقله حنين الى السرياني، واسحاق إبنه الى العربي؛ ولخصه إبن رشد. وعلى منوال كتاب النفس لأرسطو وضع كل من ثامسطيوس ونيقولاوس وإبن سينا والفارابي وأبو القاسم السجستاني وأبو بكر الرازي وإبن باجه، كتبهم في النفس، وكلها لا تختلف كثيرا عن الاصل الارسطي. وعلى الرغم من أن عنوان الكتاب هو (النفس) إلا أنه يصف أحوال الجسم وتأثير الطعام على الإنفعالات النفسية والأفعال السلوكية، فمضمونه فسيولوجي أكثر منه سيكولوجي.

ومن منطق وفلسفة أرسطو، نسج الكندي رسالة في المدخل المنطقي، وأُخرى مختصرة في البرهان المنطقي. ورسالة في المقولات العشرة. ورسالة في الإحتراس من خدع السوفسطائين. ورسالة في السياسة. وكلها مستنسخة من كتب أرسطو. وإستلهم معارفه الرياضية من إقليدس وارشميدس. فكتب رسالة في المدخل الى الإرثماطيقي، ورسالة في أغراض كتاب إقليدس، ورسالة في تقريب قول أرشميدس.

وأخذ عن الهنود ما دونه في رسالته في إستعمال الحساب الهندي. وأخذ الطب عن بقراط كما في رسالته في الطب البقراطي، ورسالة في عضة الكلب على شاكلة كتاب فلغوريوس في عضة الكلب؛ وأخرى في أقسام الحميات، على منوال كتاب الحميات ليوحنا بن ماسويه. وغير ذلك.

وأخذ الفلك عن بطلميوس، كما في رسالته في صناعة بطلميوس الفلكية. ورسالته في صناعة الإسطرلاب بالهندسة. وألف كتابا في الإبانة عن قول بطليموس في المجسطي.

وأخذ الموسيقى عن الاغريق والسريان، كما في رسائله في المدخل الى صناعة الموسيقى، والتأليف الموسيقي، وترتيب النغم، والإيقاع. كما كتب رسائل كثيرة في التنجيم على غرار الكتب الكثيرة التي وضعت قبله في هذا المجال. مثل رسالتيه في الهيلاج والكتخداه، وفي تحويل سني المواليد.

ووضع أبرخس الزفتي كتاب الحدود في صناعة الجبر، وكتاب قسمة الأعداد. ووضع ذيوفنطس كتاب صناعة الجبر. ووضع نيقوماخس الجهراسيني كتاب الارثماطيقي. وبعدهم وضع الخوارزمي كتابا في الجبر والمقابلة. وعن هؤلاء، وضع أبو الوفاء- نيسابوري انتقل الى العراق- تفسير كتاب ديوفنطس في الجبر، وتفسير كتاب ابرخس في الجبر، والمدخل الى الارثماطيقي، وتفسير كتاب الخوارزمي في الجبر والمقابلة.

ووضع سند بن على اليهودي-أسلم على يد المأمون- كتاب الجبر والمقابلة، والجمع والتفريق، وغيرهما. ووضع أبو كامل شجاع بن أسلم كتاب الجمع والتفريق، والجبر والمقابلة وغيرهما. ولأحمد بن محمد الحاسب كتاب بعنوان الجمع والتفريق.

ووضع أبو نصر الفارابي شرح كتاب المجسطي لبطلميوس، وشرح كتاب ايساغوجي لفرفوريوس، وشرح مقالة الإسكندر الأفروديسي في النفس. والمدينة الفاضلة والمدينة الجاهلة، على غرار المدينة الفاضلة لافلاطون. وكان الفارابي من أشد المعجبين بأرسطو، فكتب شروحات لمعظم كتبه مثل البرهان، والخطابة، والقياس، والمقولات، والسماع الطبيعي، وبعض كتاب الاخلاق. وعمل جوامع لكتب المنطق، وقال ذات مرة:

"قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة، وأرى أني محتاج الى معاودته".

ولما سئل: من أعلم أنت أم أرسطو؟ أجاب: "لو أدركته لكنت اكبر تلامذته". وذكر ياقوت الحموي في معجمه أن الفارابي كان تلميذاً ليوحنا إبن حيلان.

وعلى منوال كتاب السياسة لأرسطو، والذي نقله حنين إبن اسحاق الى العربي، وضع أبو الفرج بن الطيب السرخسي كتاب السياسة الكبير، وكتاب السياسة الصغير. وينسب لأبي زيد بن سهل البلخي، كتابان يحملان نفس الإسم: كتاب السياسة الكبير، وكتاب السياسة الصغير.

وفي الماضي لم تكن توجد هيئة تراقب المصنفات العلمية والأدبية، وتحمي حقوق الملكية، لذلك كان بعض النساخ والباحثين ينقلون–بتصرف– كتب السابقين ويضعون عليها أسماءهم، كما رأينا. وكان بعض آخر ينتحلون المصنفات كاملة دون الإشارة الى إسم صاحبها الاصلي. ومن أمثلة ذلك ما يرويه إبن النديم عن إبن المكتفي أنه قال: "قرأت في كتاب بخط إبن الجهم ما هذا حكايته: كتاب المدخل لسند بن على، وهبه لأبي معشر، فإنتحله أبو معشر"(الفهرست، صـ 384). وكثيراً ما كانت الكتب تُنسب بطريق الخطأ الى غير أصحابها، ربما لتلف الورقة

الأولي التي تحمل إسم صاحب الكتاب. ومثال ذلك كتاب التاسوعات وهو لأفلوطين. ظن الفارابي أنه من كتب أرسطو. وألف كتاباً بعنوان: الجمع بين رأي الحكيمين، وهو يعني افلاطون وأرسطو، ولم يكن يعلم أنه يوفق بين تاسوعات أفلوطين، وآراء أفلاطون. ونسب الفرد بتلر كتاب تاريخ الاديرة والكنائس القبطية ومؤلفه سعد الله ابو المكارم، الى أبي صالح الأرمني. وابو صالح كان فقط ناسخا له. كما يعتقد أيضا أن كتاب(تهذيب الأخلاق)، نسب الى الجاحظ بطريق الخطأ أيضاً.

وترك ابقراط كتباً في الطب من بينها: كتاب الفصول، وكتاب طبيعة الإنسان. وعلى نهج كتاب طبيعة الإنسان، وضع ارسيجانس كتاباً بنفس الإسم. وفسر كتاب الفصول.

ومن فصول ابقراط، نسج الرازي كتابين هما: كتاب تفسير كتاب جالينوس لفصول بقراط، وكتاب الفصول المعروف أيضا بالمرشد.

ومما ترك فيلغريوس، كتاب وجع النقرس، وكتاب القولنج. وبعد ذلك صنف يوحنا إبن ماسويه كتاباً بعنوان القولنج. ووضع الرازي مقالة بنفس الإسم.

وترك جالينوس من الكتب: النبض، والعلل والأعراض، ومحنة الطبيب، والنبض الكبير، والحاجة الى النبض. وعلى منوال جالينوس، وضع إبن ماسويه كتاباً بعنوان محنة الطبيب. وكتب الرازي رسالة في محنة الطبيب. كما إنه إختصر كتاب النبض تحت عنوان إختصار كتاب النبض الكبير لجالينوس.

وترك روفس الأفسوسي من الكتب: تدبير من لا يحضره طبيب، والتدبير، والباه، والطب، وعلل الكلى والمثانة. وعلى نحو كتاب الباه، وضع كل من حنين بن

اسحق العبادي، وقسطا بن لوقا البعلبكي كتابين يحملان نفس الإسم. ووضع أبو بكر الرازي مقالة بذات العنوان. وعلى نهج كتاب تدبير من لا يحضره طبيب، صنف كل من فلغريوس، وعيي بن ماسة كتابين بعنوان(من لا يحضره طبيب) ووضع الرازي كتاب(الى من لا يحضره طبيب). كما وضع كتابين آخرين أحدهما عن الكلى، والآخر عن المثانة على نهج كتابي المثانة والكلي لروفس...الخ

وكانت تلك المصنفات قد إنتقلت من أصلها اليوناني الى لغات المشرق بعد الإحتلال المقدوني له والذي جرى على يد الاسكندر الاكبر في القرن الرابع قبل الميلاد. ومن ثم ترجمت معظم هذه الكتب الى اللغة السريانية والقبطية والفارسية والآشورية. ولعل بعضها يكون قد إنتقل الى عرب الحيرة والغساسنة. وبعد الإحتلال العربي للمنطقة، وجرى ما جرى للناس والمكتبات، تراجعت العلوم إلا أن القليل من الخلفاء والأمراء أدرك أهمية الكتب والعلوم وراح يفتش عنها وينفق على ترجمتها الى العربية. وذكر إبن النديم أن خالد بن يزيد إبن معاوية كان الوحيد في بني أمية الذي إهتم بنقل الكتب الى العربية. وأنه "أمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى اللسان العربي"(الفهرست، صـ 338).

كما أشار الى إهتمام ابي جعفر المنصور العباسي والبرامكة بعملية نقل الكتب على نطاق ضيق. ثم توسع فيه المأمون، فبعث سفارة الى ملك الروم لإحضار"كتب العلوم القديمة المخزونة المذخرة ببلد الروم". وكان من بين أفراد السفارة: الحجاج بن مطر، وإبن البطريق، وساما صاحب بيت الحكمة، ويوحنا بن ماسويه.

واشتغل بنو شاكر المنجم بتجارة الكتب. وكانوا يجلبونها من بلاد الروم وينفقون على ترجمتها ونسخها، والاتجار بها. "وبذلوا الرغائب وانفذوا حنين بن اسحق وغيره الى بلد الروم فجاؤهم بطوائف الكتب وغرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى والارثماطيقي والطب. وكان قسطا بن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئا فنقله، ونُقل له"(صـ 340). وهذا يدل على أن الروم كانوا يحتفظون بكتب الإغريق على الرغم من رفض الكنيسة لبعض فروعها كالتنجيم والسحر.

وذكر إبن النديم من أسماء المترجمين: اصطفان القديم الذي نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها. والبطريق الذي نقل للمنصور أشياء من العلوم القديمة، وإبنه يحى بن البطريق، والحجاج بن مطر الذي نقل المجسطي وإقليدس للمأمون. وعبد المسيح بن عبد الله الحمصي المعروف بإبن ناعمة. وسلام الابرش. وحبيب بن بهريز مطران الموصل الذي فسر للمأمون عدة كتب. وزروبا ابن ماجوه الناعمي الحمصي. وهلال بن ابي هلال الحمصي. وتذاري، وفثيون، وأبو نصر إبن ايوب، وبسيل المطران، وأبو نوح بن الصلت، وابراهيم بن الصلت، واسطاث، وجيرون، وباسيل، واصطفان إبن باسيلي، وإبن رابطة، وتيوفيلي، وشملى، وعيسى بن نوح، وقويري، وتذرس السنقل، وداريع الراهب، وهيابثيون، وصليبا، وايوب الرهاوي، وايوب آخر وسمعان اللذان فسرا زيج بطلميوس. وإبن شهدي الكرخي الذي نقل من السرياني الى العربي كتاب الأجنة لبقراط. وأبو عمرو يوحنا بن يوسف الذي نقل كتاب افلاطون في آداب الصبيان. وايوب إبن القاسم الرقي نقل من السرياني الى العربي كتاب ايساغوجي وغيره. وداريشوع، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وحنين، واسحق، وثابت، وحبيش الأعسم، وعيسى بن يحي، والدمشقي،

وابراهيم بن عبد الله، ويحي بن عدي، والتفليسي. وإيباس من مدرسة الرها، هو أول من نقل الى السريانية إختصار فرفوريوس لكتاب ايساغوجي وهو أحد كتب أرسطو المنطقية. وعلق بروبوس على هذا الكتاب وعلى باقي كتب أرسطو المنطقية.

ومن المترجمين عن الفارسية، ذكر إبن النديم إبن المقفع، وآل نوبخت، والحسن بن سهل، والبلاذري، واسحق بن يزيد، وموسى بن عيسى الكردي، وزادويه بن شاهويه الاصفهاني، ومحمد بن بهرام بن مطيار الاصفهاني، وبهرام بن مردان شاه، وعمر بن الفرخان. ومن الناقلين من العلوم الهندية الى العربي: منكه، وإبن دهن.

وكان لمسيحي الشرق من السريان فضل كبير في الحفاظ على ما استطاعوا اليه سبيلاً من كتب وعلوم الاغريق خاصة، فنقلوه أولا الى السريانية، لغتهم المحلية، ثم الى العربية. واشتهر منهم – بخلاف من سبق ذكرهم– جرجيوس إبن بختيشوع، طبيب المنصور، وأبو بشر متى إبن يونس، واثناسيوس الراهب، ويوحنا القس إبن فتيلة. وأبو اسحاق ابراهيم إبن بكوش، وعيسى إبن اسحاق إبن زرعة. وقد ذكرهم بعض المؤرخين والنساخ مثل الحسن إبن سوار تلميذ يحي إبن عدي، وهو ممن إشتغلوا بنسخ كتب أرسطو.

وعن فضلهم في نقل التراث اليوناني الى العربية يقول الأستاذ محمد لطفي في كتابه تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب:

"يجدر بنا ان نَرُدَّ الفضل الي ذويه ونعترف بسرور وعن طيب خاطر بأن الذين إشتغلوا بنقل العلم والفلسفة في العصر العباسي الأول كان معظمهم من أدباء أهل الكتاب من غير المسلمين".

عندما وصل العرب الى طيبة، ووجدوا المدينة تعج بالمعابد الضخمة، ظنوا أنها قصور الفراعين، فأطلقوا عليها مدينة الاقصر أي مدينة القصور. فلم يكن لهم علم باللغة المصرية القديمة حتى يقرأوا ويفسروا ما هو مكتوب على الجدران، اذ كان هدفهم الرئيسي هو در اللقحة. ولم تكن علوم المصرين ومكتبتهم ولغتهم وتاريخهم يشغلهم مثلما شغل المحتل الفرنسي بقيادة نابلوين بونابرت وما كان برفقته من العلماء المتخصصين في كافة المجالات. وأسفرت جهود شامبليون عن معرفة الهيروغليفية التي تزين أوراق البردي، وتفترش جدران المقابر والمعابد وبعض الاهرامات مثل هرمي أوناس وتيتي بسقارة. ولا تزال طيبة، مدينة المعابد، تسمى الأقصر حتى الان.

وعندما ذهبوا الى الفيوم، ووجدوا معبد سوبك وحورس. ظنوا انه قصر قارون، لأن جهلهم بمعاني الكتابات الموجود على جدرانه، جعلهم يربطوا بين هذا البناء الضخم وبين قارون الرجل الثري الذي شحذ ثراؤه ألباب الأغنياء قبل الفقراء. ولا يزال الناس الى اليوم يصفون معبد سوبك بأنه قصر قارون. ولم يسأل أحد نفسه إن كان هذا البناء هو معبد أم أنه كان قصراً لمن وُصِفَ بأنه أغنى اغنياء العالم في زمانه. والذي تشغل قصته مساحة لا بأس بها في التراث العربي، فيقول إبن الأثير في (الكامل) أن قارون هذا هو إبن عم موسى النبي، أي أنه من بني اسرائيل، وأنه كان "كثير المال عظيم الكنوز، قيل: إن مفاتيح خزائنه تُحمل على خمسين بغلاً ".

وأن له ثلثمائة جارية، وأكثر من أربعة الآف من الأتباع. وأنه حرضهم على عصيان موسى؛ واوعز الى إمرأة ان تَدَّعي ان كليم الله فعل بها السوء. واثناء

المواجهة انكرت المرأة الادعاء فتبين كذب قارون أمام الناس. وأمر الله موسى ان يأمر الأرض ان تأخذه فأخذته هو وبيته الذي كان بابه من ذهب وجدرانه مغشاة بالتبر– كما يقول إبن الاثير. ومن ثم فيتعين ان يكون قصر قارون الآن في باطن الأرض لا على وجهها.

وتذكر التوراة أن بني اسرائيل كانوا يعيشون في أرض جاسان، شرق الدلتا. ولا نعلم لماذا ترك فرعون قارون يبني له قصراً في الفيوم، وأن يكدس تلك الثروة الطائلة، ويحشد لنفسه جيشاً من الأتباع، وهو–أي فرعون– الذي كان يسوم بني إسرائيل العذاب، ويأمر بقتل ذكورهم، لم يكن يملك من المال ما يمتلكه هذا اللاجئ الاسرائيلي.

وتتشابه قصة قارون مع قصة قورح التوراتية(عد16)، حيث يرد فيها أن قورح وصاحباه: داثان وأبيرام تكبروا على موسى وأرادوا أن ينازعوه سلطته النبوية. فطلب منهم موسى أن يأتي كل منهم بمجمرة، ويقفوا جميعاً أمام الله والشعب، حتى يتبين للجميع إن كانوا على حق أم على باطل. ولم تتردد الأرض عن إبتلاعهم، هم وكل ما لهم. وتشير التوراة إلى أن تلك الواقعة حدثت أثناء ترحالهم في سيناء.

ويتردد على ألسنة المثقفين والأُميين أن تسمية قرية ميت رهينة– القائمة على أطلال مدينة منف– ترجع الى أن أحد القادة أخذ منها مائة من الرهائن. وفضلاً عن أن التاريخ لم يذكر خبر الرهائن ولا ملابسات الواقعة، إلا أن الإسم في حقيقة الأمر هو تحوير لعبارة "مِيت–رِهْنِتْ" المصرية القديمة، والتي تعني طريق الكباش. وهو الطريق الذي كان يمرق بين صفين من تماثيل الكبش آمون أمام معبد المدينة، مثل طريق الكباش الذي يربط معبدي الكرنك والأقصر حتى الان. ولا تزال

لفظة "مِيت" تُطلَق على بعض القرى والمدن المصرية مثل مِيت (طريق) غمر، ومِيت(طريق) أبو الكوم، وميت دمسيس.

ويتردد القول أيضاً بأن مدينة الفيوم قد سُمِّيت بذلك لأن فرعون–كما يقول إبن اياس–إندهش عندما رأى ما أنجزه يوسف فيها من أعمال في وقت قصير، فقال "هذا كان يُعمل في ألف يوم، فسميت من يومئذ الفيوم".

ولكن مصر في زمن الفراعنة لم تكن تتكلم العربية. ولم يرد في أي مصدر تاريخي أو أثري أن هذه المنطقة كانت تُسمى بهذا المعنى؛ وإنما ترجع تسميتها الى الإسم المصري القديم "با–يوم". ثم عُرفت في العصر اليوناني الروماني بإسم كروكودوبوليس أي مدينة التمساح، حيث كانت تكثر بها التماسيح التي كانوا يقدسونها تحت إسم "سوبك". ولا تزال معابده قائمة في منطقة كرانيس، حيث يتقدم كل معبد منها حوض كبير ليسبح فيه سوبك ورفاقه. كما يوجد معبد آخر يقع الى الجنوب من البحيرة التي تسمى ببحيرة قارون. وفي هذا المعبد الذي أشرت اليه آنفاً، يتقاسم العبادة كل من سوبك وحورس، كما هو الحال في معبد كوم امبو.

وظلت الناس تعتقد أن ميت رهينة ترجع الى الرهائن، وأن الفيوم تعود الى الألف يوم. ولا زلنا نسمع ونقرأ ما يشبه ذلك الكثير. مما يتطاير هنا من ألسنة الإعلاميين، وما يسيل هناك من أقلام المؤرخين. ولم يراود الشكُ أحداً إن كان ذلك صحيحاً أم أنه من خيال السابقين. وإن كنا نلتمس العذر للقدماء، فلا عذر لنا بعد أن كشف لنا علماء الآثار ما كان يعد عند الماضين طلاسم في طلسمات من لغة أجدادنا وتراث أبائنا. فليس من يقع عليه اللوم هو من قال ذلك فيما مضى عن جهل؛ بل يقع اللوم على من يردده اليوم دون إعمال للعقل.

وفي القرن الرابع قبل الميلاد. قال أرسطو أنه إذا سقط جسمان من أعلى الى إسفل فإن الجسم الأكثر ثقلاً يصل الى الأرض قبل الجسم الأقل وزناً. وعلى مدى نحو ألفي عام، ظل المعلمون وطلاب العلم، يسلمون بذلك ويتناقلوه. ولم يسأل أحد نفسه: هل هذا صحيح أما لا ؟ حتى جاء جاليليو، وطرح السؤال؛ وبالتجربة العملية أثبت خطأ أرسطو في هذه المسألة–وإن كان قد أصاب في غير ذلك الكثير.

إن التفكير العلمي يُلزمنا ألا نَقبل كل ما يرد إلينا من أخبار ومعلومات قبول السذج، ولا ننساق الى ما يقال سوق الدواب للمرود. ولا نودِع ثقتنا المطلقة في بشر يصيب ويخطئ. وليكن هدفنا الحق وليس الأفراد، ولتكن قبلتنا الحقيقة وليس العباد. وعلينا أن نتوقف عن عبادة البشر التي جعلتنا نرى أن الحق منهم وبهم وفيهم. فهم المرأة التي نرى منها كل شئ حتى أنفسنا. هم الفضلاء ونحن الوضعاء، هم العلماء ونحن الجهلاء، هم الأشراف ونحن الأدنياء. كل ما يروه حق وكل ما نراه بخلافهم باطل. على الرغم من أننا نملك عقولاً مثلهم؛ بل وتجتمع لدينا حقائق وأدوات بحثية وعلوم ومعارف تراكمية لم تكن متاحة لهم.

والعالِمُ ليس هو من تتسع ذاكرته ليحفظ شعر الشعراء، وأخبار القدماء، وخطب البُلاغاء. ولكن العالم هو من يقدم للإنسانية كشفاً جديداً لم يسبقه إليه سابق. هو من يتبع مناهج البحث العلمي إنطلاقاً من المنطق والنقد العقلي الخالص. ويخرج عن دائرة العلمية كل ما نفترض صحته من مُسَلَّمَاتٍ لا تملك من دليل على صحتها سوى شيوعها وكثرة المرددين لها. وهذا لا يتم إلا إذا سألنا أنفسا–مثل جاليليو–: هل هذا صحيح؟!

وكيف نسأل ولا تزال تعترض اسئلتنا خطوط حمراء وصفراء وسوداء. ولا زلنا نواجه مشاكلنا، ليس بالعلم والمنطق وإنما بالبلاغة وبالخطب العصماء، وبالقوانين العمياء والعرجاء!

قلما يخلوا مجتمع من الفضلاء، كما لا يخلوا من المرائين ومدعي الفضيلة–وأنا أولهم–. ولكن مفهوم الفضيلة يختلف بإختلاف الشعوب والمجتمعات. وقد يصل الإختلاف الى حد التناقض، ومعظم الفضائل الإنسانية فضائل برانية بطبعها لأنها تقف عند حد تنفيذ القوانين والخضوع للاعراف والتقاليد الإجتماعية.

ومما يؤسف له أن يختصر الناس الفضيلة في ممارسة الطقوس والشعائر الدينية، خوفاً من عقاب الله، أو لكي يظهرون بمظهر الأتقياء أمام الناس والمجتمع أكثر مما يهتمون بتطهير الباطن من الأوزار. فالفضيلة هنا شكلية برانية لا تمس نفس الإنسان وجوهر باطنه. ولهذا تعج المجتمعات المتدينة بالمرآئين، فترى نساءً محتشمات، يأتين في السر الموبقات. وتجد رجالاً يظهرون للناس أتقياء، ويغتابون ويغتالون في الظاهر وفي الخفاء، وبتبجح وإستعلاء.

وفي مثل هؤلاء يجرى قول الوحي لبني اسرائيل على لسان إشعياء النبي: "حين تبسطون أيديكم، أسترُ عيني عنكم. وإن كثرتم الصلاة لا أسمع. أيديكم ملانة دماً"(إش1).

ومما يدل على إختلال ميزان الفضيلة عندنا، أننا نختلق المناقب لمن لم يرق لشاكي، ولمن لم يرحم دمعة باكي، وهو في غاية الرضى بما يفعل من المآسي والمآقي. مثل أبي مسلم الخراساني، الذي كان قلبه كإسمه، وروحه كجسمه. وقد روى عنه التاريخ أنه قتل ستمائة ألف إنسان صبراً، بخلاف قتلى حروبه وغزواته. ومثله كان الحجاج ابن يوسف الثقفي. قتل هو الآخر مائة وعشرين ألف إنسان بدم بارد، ومات في سجونه المكشوفة ثلاثون ألف إمرأة وخمسون ألف رجل من الجوع

والعطش ومن الحر والبرد. وكان يقول عن نفسه أن أكبر لذته سفك الدماء. وقال عنه الشعبي: "لو جاءت كل أُمة بخبيثها، وجئنا نحن بالحجاج، لزدنا عليهم. ولما مات قالت زوجته هند:

ألا أيها الجسد المُسجَّى .... لقد قرَّتْ بمصرعك العيون

وقد كنتَ قرين شيطان رجيم .. فلما مُت، سَلِمَك القرين.

وشغلت الفضيلة مساحة كبيرة في ميثولوجيا العالم القديم. وكان الفكر الديني عند قدماء المصريين يقوم على الإيمان بالبعث والحساب، وكشف السريرة في يوم النشور، حين يبوح القلب بكل ما أتى من رزايا، وبكل ما طوى من نوايا. ولذلك كان المصريون يهتمون بسلامة النية والجوهر قدر إهتمامه بالشكل والمظهر. وكان المتوفى يُقر أمام أُوزيريس وبحضور إثنين وإربعين قاضياً أنه لم يقتل، ولم يزن، ولم يسرق، ولم يعتدي على أرض جاره، ولم يُتلف زرعه، ولم يحرق جُرنه. ولم ينظر الى زوجته، ولم يسرق دابته. ولم يحل دون إطعام رضيع، ولم يكن سبباً في بكاء وضيع. ولم يترك حجر عثرة في الطريق، ولم يخن الجار ولا الصديق ... الخ

وأدخل الرواقيون الفضيلة في نطاق إهتماماتهم الفكرية بشكل عملي. إذ كانت الحرية عندهم جوانية، تقوم على ضبط النفس، وليس على الإستحواذ على الأشياء وإشباع نزوات الجسد وشهواته في الجنس والسلطة والمال.

كما صنفوا الناس إلى صنفين: الحكماء بفضائلهم، والجهلاء برزائلهم. فالحكماء هم الذين يحبون الناس ويعطفون عليهم، ولا يغاضبون أحداً، ولا يسيئون إلى أحد. ووصَفوا الجهلاء بأنهم: "غلاظ القلوب، طغاة، جهال، غير مهذبين. وما

أسهل أن يصطنعوا العنف والبطش وإهدار القانون والعدالة...لا يرعون للصداقة عهداً، ولا يعرفون للبر معنى. إنهم جاحدون مخادعون متقلبون".

وكان بعض رجال الدين في زمن السيد المسيح نموذجاً للمرائين الذين ضلوا وأضلوا، بسبب فهمهم الحرفي للشريعة، وإعتلَّت ضمائرهم بالكبرياء والعجرفة والبر الذاتي. فتارة نراهم يحتجون على السيد المسيح لأنه يصنع المعجزات في يوم السبت، وتارة أُخرى ينتقدون تلاميذه لأنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون. فقال لهم عن إعتراضهم الأول:

"أي إنسان منكم يكون له خروف واحد؛ فإن سقط هذا في السبت في حفرة، أفما يمسكه ويقيمه. فالإنسان كم هو أفضل من الخروف! إذا يحل فعل الخير في السبوت"(مت 12).

وكان الهدف من وصية السبت هو راحة الإنسان والحيوان، "احفظ يوم السبت لتقدسه..لا تعمل فيه عملاً ما، أنت وإبنك وإبنتك وعبدك وأمَتك وثورك وحمارك.. لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك.."(تث5).

ولهذا قال لهم:"السبت إنما جُعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت"(مر2). بل وإن الناموس كله، بشقيه التشريعي والتعبدي، جُعل لأجل الإنسان، جعل لخيره وليس لقهره، لإسعاده وليس لشقائه. جُعل لتطهير النفس من شرورها، ولحماية الضعفاء من ظلم الأقوياء. لأن الله لا يحتاج الى عبادة الناس، ولا يفتقر الى صلواتهم ولا الى صدقاتهم، فهو الكامل، والمكتفي بذاته: كان في الأزل وحده، لا ملائكة يسبحونه، ولا بشر يعبدونه. ولذلك يقول القديس غريغوريوس مخاطباً العزة الالهية:

"لست أنت المحتاج الى عبودتي؛ بل أنا المحتاج الى ربوبيتك". وهو الأمر الذي لا يعقله المتزمتون من قادة اليهود، ومن غيرهم. فكانوا يأخذون بحرفية الناموس دون روحه، وبشكليات العبادة دون جوهرها.

وفي إعتراضهم الآخر قال لهم ما يصح أن يقال لكل إمرء يظهر بمظهر الفضيلة–على شاكلتي–وهو بعيد عن جوهرها بعد السماء عن الأرض:

"يا مراؤون حسناً تنبأ عنكم إشعياء قائلاً. يقترب اليَّ هذا الشعب بفمه، ويكرمني بشفتيه؛ وأما قلبه فمبتعد عني بعيداً..ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الإنسان"(مت15).

وفي موضع آخر قال لهم:

"ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مُبيضة تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات، وكل نجاسة. هكذا أنتم أيضاً من خارج، تظهرون للناس أبراراً؛ ولكنكم من داخل مشحونون رياءً واثماً" (مت23).

ومن هذا الجانب تجدهم يحبون أن يظهروا بمظهر الفضلاء أمام الناس أكثر من إتيان الفضيلة نفسها، فيتصدقون ويصلون أمام الناس لكي ينظروهم ويثنون عليهم. ولهذا حذر السيد المسيح من التظاهر بالفضيلة:

"إحترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم؛ وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات. فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقة لكي يمجدوا من الناس. الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك. لكي تكون صدقتك في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء هو يجازيك علانية.

ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس الحق أقول لكم إنهم قد إستوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صليت فأدخل الى مخدعك وأغلق بابك وصل الى أبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية"(مت6).

ووضع القديس بولس شرطاً آخر للفضيلة هو المحبة، قال فيه:

" إن كُنت أتكلم بألسنة الناس والملائكة، ولكن ليس لي محبة فقد صرت نحاساً يطن أو صنجاً يرن. وإن كانت لي نبوة وأعلم جميع الأسرار وكل علم، وإن كان لي كل الإيمان حتى أنقل الجبال، ولكن ليس لي محبة فلست شيئاً. وإن أطعمت كل أموالي، وإن سلمت جسدي حتى إحترق، ولكن ليس لي محبة فلا أنتفع شيئاً. المحبة تتانى وترفق المحبة لا تحسد المحبة لا تتفاخر ولا تنتفخ. ولا تقبح ولا تطلب ما لنفسها، ولا تحتد، ولا تظن السوء. ولا تفرح بالإثم بل تفرح بالحق"(1كو13).

ويخطئ من يظن أن الإعتقاد بوجود الله، هو فقط ما يحدد مصيره في الآخرة. ولذلك قال القديس يعقوب: "أنت تؤمن أن الله واحد حسناً تفعل والشياطين يؤمنون ويقشعرون"(يع2). كما أنه أكد على ضرورة العمل الصالح بقوله: "لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت هكذا الإيمان ايضاً بدون أعمال ميت"(يع 2).

ومما يؤكد على اهمية عمل الخير المقرون بالمحبة كشرط لدخول الملكوت، هو في كلام السيد المسيح:

"ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار إذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته. لأني جُعت فلم تطعموني عطشت فلم تسقوني. كنت غريباً فلم تأووني عرياناً فلم تكسوني مريضاً ومحبوساً فلم تزوروني. حينئذ يجيبونه هم ايضاً

قائلين: يا رب متى رايناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك. فيجيبهم قائلاً: الحق أقول لكم بما أنكم لم تفعلوه بأحد هؤلاء الأصاغر فبي لم تفعلوا. فيمضي هؤلاء الى عذاب أبدي والأبرار الى حياة أبدية"(مت25).

وإذا كان العذاب الأبدي هو مصير من لا يطعم جائعاً، ومن لا يكسو عرياناً أو يزور محبوساً أو يأوي غريباً؛ فماذا يكون مصير من يحبس بريئا؛ ومن يجرد الناس من ممتلكاتهم، ويطردهم من أوطانهم؛ ومن ييتم أطفالهم، ويسبي ويعري نساءهم، معتقدا أنه بلغ أسمى درجات الفضيلة، كما قال أحد ملوك آشور، بعد أن غزا البلاد وقتل العباد، وسبى النساء والأولاد، وذبح الأسرى في الأصفاد، قال مفتخراً: "وبهذه الأعمال أدخلتُ السرورَ على قلوب الآلهة العظام". ولم تكن تلك الآلهة سوى الشياطين بعينها.

جمعت ميثولوجيا العالم القديم بين الحب والجنس، وجعلتهما تحت رعاية الأرباب، فكان ديونيسوس وإيروس وأفروديت هم الراعاة الرسميين لمباريات الجنس التي كانت تجري في أروقة المعابد الإغريقية. كما قامت إنانا السومرية، واللآت العربية، وفينوس، وكيوبيد الروميان، بذات الدور. وجميعهم كانوا يمثلون المصدر الرئيسي للعشق والخصوبة.

ولستُ أعلمُ ما هو وجه الشبه بين الحب والجنس والحرب حتى تجمعهم عشتاروت الفينيقية في سلة واحدة، لتكون إلآهة النقيضين: الحب والحرب، في آن واحد.

وقد تجاوز الإنحطاط الأخلاقي في تلك العهود حد الزنى كفعل مذموم، الى إستحلاله، وإستباحة ممارسته في حضرة الآلهة، وبمباركتهم وتحت إشرافهم، فيما وصفوه بالجنة الأرضية.

وكانت ثقافة المجون تمثل التحدي الأكبر أمام المبادئ المسيحية التي نهت عن الزنى بكل صوره وأشكاله الفكري والجسدي، فقال السيد المسيح: "كل من ينظر الى إمرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه"(مت5). وقال بقدسية السماء وبقداسة من يدخلها: "لأنهم في القيامة لا يزوجون ولا يتزوجون بل يكونون كملائكة الله في السماء"(مت22).

ويقسم الناس الحب الى أنواع شتى: حب الله، وحب الوطن، والحب الأبوي، وحب الزوجين، والحب العذري، والحب الجنسي...الخ.

وعلى الرغم من الإختلاف البيِّن بين الحب والجنس، حيث أن الأول قيمة معنوية، والثاني لذة حسية. وأن الحب تضحية وبذل وعطاء، والجنس إشتهاء وأخذ وإستمتاع؛ إلا أن كثيراً من الناس يوحدون بينهما.

وإن كنا لا ننكر دور الغريزة الجنسية في جذب وتآلف الجنسين، لكنها تختلف عن الحب إختلافاً كبيراً؛ ففي الحب يشقى المحب من أجل راحة المحبوب، ويتألم من أجل سعادته؛ أما الجنس فهو إمتاع الآخر في ثنايا إمتاع الذات. والحب قد يفتر ويضعف، وقد ينقلب الى كراهية، مع إستمرار العلاقة الحميمة بين الزوجين. وقد يجمع الحب وحده دون الجنس زوجين تعاهدا على البتولية. وهذا لا يعني أن الحب والجنس لا يجتمعان بين الزوجين؛ بل من الممكن أن يجتمعا.

وقد تدفع الظروف الرجل أو المرأة الى الزواج بمن لا يرغب؛ ومع ذلك، لا يحول عدم القبول دون الإجتماع والإنجاب. فقد تزوج يعقوب بـ ليئة التي لم يكن يحبها، وأنجب منها. ثم تزوج بعد ذلك بـ راحيل التي أحبها وأحبته وأنجبت له. وبناءاً على طلب الأُختين المتنافستين على عدد الأولاد، دخل يعقوب على خادمة كل واحدة منهما ليعطياه الولد. وهذا يؤكد على أن الحب والجنس شيئان مختلفان.

وتعتبر الخيانة الزوجية دليل واضح على الإختلاف بين الحب والجنس. وقد قدمت لنا الميديا من خلال الأعمال الدرامية والحوارات الواقعية العديد من وقائع الخيانة التي جرت بإسم الحب، وهي لا تصل الحب بصلة، ولا تبعد عن الخسة والدناءة قيد أُنملة. فكم من مُحصن ومُحصنة تخليا عن شريكي حياتهما، وهجرا فلذات أكبادهما لكي يشبعا رغبة طامحة ونزوة جامحة، متعللين بالحب، والحب منهما براء، ومتظاهرين بالبراءة، والبر معهما عراء. فأين الحب إذن من رجل لا

يرى من المرأة سوى شعر طويل، وأنف قصير ، ونهد جاحظ، وردف بارز. وأين هو ممن يخون شريكته كما الكلب العائد الى قيئه ؟ وأين هو من زوجة تتمرغ في وحل الرزيلة كما الخنزيرة في مراغة الحمأة ؟

وكما تختلف أنواع الحب فكذلك تتباين درجاته، فيقوى ويضعف على حسب الأجواء.ويتأثر بالميول والأهواء. ويتعلل بالظروف والصروف، وبالجيب والمصروف. وتختلف درجة التأثر من شخص لآخر. فهناك من يفتر حبه لهفوة صدرت عن المحبوب. وهناك من لا تهتز محبته مهما صدر عنه من أخطاء وذنوب. فيغفر له ويسامح. ويعفو عنه ويصالح. فالحب إذن هو ما يدفع المحب الى تقبل الهفوات والهنات، والإعراض عن الأغلاط والسيئات. وهو البوتقة التي تنصهر فيها ذات المحب مع ذات المحبوب؛ فيفرح لأفراحه، ويحزن لأتراحه. وهذه كلها من مظاهر الحب الطبيعي بين المحبين والمحبوبين من الناس.

أما الحب الإلهي، فهو أسمى وأعمق من ذلك الحب الإنساني، فهو يتجاوز ذلك النوع المألوف بين المحبين، ليستغرق الأعداء والمسيئين. وقد دعى إليه سيد الآنام بقوله: "أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا الى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم. لكي تكونوا ابناء ابيكم الذي في السماوات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم، فأي أجر لكم، أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك. وإن سلمتم على إخوتكم فقط، فأي فضل تصنعون أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا. فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل"(مت5).

ولقد ظهر الحب الإلهي وتجلى في صور كثيرة: فرأيناه في صلاة اسطفانوس، شهيد المسيحية الأول، الذي طلب الصفح لراجميه قائلاً: "يا رب لا تقم لهم هذه الخطية"(اع7). كما تجلى في طلب أهالي ضحايا الأرهاب المغفرة للقاتلين والصلاة من أجلهم. أما أعظم تجلي لهذا الحب فقد ظهر على الصليب عندما قال السيد المسيح: "يا ابتاه إغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"(لو23).

هذا الحب الإلهي الذي تسكبه النعمة في النفس المؤهلة له، يتجاوز خصائص الطبع البشري المتقلب، لينسج خيوطه من المستحيل. ولهذا لا يعقله الكارهون بل ينظرون إليه على أنه محض ظنون أو درب من الجنون. وقد سَخَرِ منه البعض ممن يُطَعَمُون الكراهية في كل غداء، ويحتسون العداوة مع كل رشفة ماء. فقالوا أنه ضعف وجنون، وقالوا: وهن وظنون؛ وهم في ذلك معذورون. لأنهم لم يختبروا المحبة الربانية؛ ولم تدركهم النعمة الالهية. ولا يجدون حرجاً في الدعوة الى العداوة والبغضاء، والتحريض على العدوان وسفك الدماء. فيقول إبن تيمية: "إن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك وأساء إليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن اليك".

ومن الذي يرضى عن الظالم والمسئ، الله أم الشيطان ؟!

ومن الذي يكره المعطي والمحسن، الله أم الشيطان ؟!

وكيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يظلم ويسئ ؟!

وهل الظالم المسئ يكون مؤمناً، والمعطي المحسن يكون كافراً ؟!

وإذا كانت المولاة للظالم والمسئ فضيلة يجب إتيانها، فماذا تكون الرذيلة إذن ؟

وإذا كان رد الاحسان بالعداوة خير، فماذا يكون الشر إذن ؟!

هل الذي يرد الحسنة بالعداوة يكون مؤمناً ويعرف الله ؟!

يقول القديس يوحنا أحد الحواريين الأطهار: "من قال أنه في النور وهو يبغض أخاه فهو الى الآن في الظلمة...وفي الظلمة يسلك. ولا يعلم أين يمضي، لأن الظلمة أعمت عينيه"(1يو2). فما بالك بمن يستبيح العدوان والقتل والسبي والسلب والنهب، وهو على قناعة بأنه مؤمن ويعرف الله الذي نهى عن كل تلك الجرائم والموبقات.

وفوق تحريض إبن تيمية على معاداة المحسنين، دعى الشيخ الحويني إلى العدوان على خلق الله مستبيحاً أرواحهم وأموالهم وأعراضهم. والإتجار بهم كما البهائم في الأسواق، قال فضيلته:

"هو الفقر اللي إحنا فيه إلا بسبب ترك الجهاد، لو كان كل سنة نغزو مرة أو إثنتين أو ثلاثة، كان سيسلم ناس كثيرون في الأرض. ومن يرفض هذه الدعوة، ويحول بيننا وبينها، مش بنقاتله. ونأخذهم أسرى. ونأخذ أموالهم ونساءهم. وكل دي عبارة عن فلوس. كل واحد كان بيرجع من الجهاد وهو جيبه مليان. معاه تلات أربع شحوطة، وتلات أربع نسوان، وتلات أربع أولاد..وكل ما ينعذر، يأخذ رأس يبيعها ويفك أزمته. وتبقى له الغلبة ..".

هل هذا يوافق الفطرة الإنسانية والمقاصد الربانية ؟ هل يقبل هؤلاء أن تُغزى بلادهم، وأن يَقتلهم الغزاة ويسبون زوجاتهم وبناتهم ويعرضوهن في أسواق النخاسة شبه عاريات لمن يعاين ويشتري ويطأ ويستولد؟

لماذا يرتضون لغيرهم ما يأبوه على أنفسهم وأهلهم؟

هل قرأوا التاريخ وعلموا بما فعله الغزاة بأجدادهم المصريين –والعراقيين والسوريين والفرس والأمازيغ وغيرهم–وأجبروهم على ترك دينهم لكي يخلصوا من شروط الإذلال والإستعباد ؟

أمثل هؤلاء يعرفون الله، أولئك الذين لا يجدون حلاً للمشكلات الإقتصادية–التي لولاهم لما وجدت– إلا في السطو وسفك الدماء، وفي النهب وسبي النساء !!!

وأولئك الذين يستبيحون تزويج القاصرات من فحول يكبروهن بعشرات السنين. فيخضعوهن لممارسة الجنس دون حب ودون أي توافق عاطفي أو فكري. كما شهد التاريخ لمآت الألوف من العذارى والأيامى والمحصنات تعرضن للسبي والبيع والشراء والإستعمال الجنسي قهراً وإغتصاباً.

وتحضرني واقعة من هذا النوع حدثت في أيام المنصور ابن أبي عامر حاكم الاندلس. كان هذا العتي، مثل سابقيه ولاحقيه، دائم الغزو والعدوان على القرى والمدن الأوربية منطلقاً من كوردوف(قرطبة). وعندما رجع من إحدى غاراته البربرية محملاً بالمنهوبات، وسائقاً السبايا سوق النعجات، بعث إليه حاجبه المسن يقول له:

أنا شيخٌ والشَّيْخُ يَهْوَى الصَّبَايَا ... يا لنَفْسِ تَقِيكَ صَرْفَ الرَّزايَا

فاجْعَلْني أَنْكِحُ مَعْروفَكَ .... وأبْعَثْ بها عِذَابَ الثَّنايَا

فبعث إليه المنصور ثلاث عذارى من المسبيات، مصحوبات بورقة ينصحه فيها بالتروي في جماعهن كونه شيخ كبير. وبينما كان الحزن يعتصر قلوب الصغيرات على حالهن وما حل بأهلهن وببلادهن من الرزايا، قام الشيخ الشايب العايب، عديم

النخوة وفاقد المروءة بإغتصبهن جميعاً في ليلة واحدة-على حد قوله. وكتب الى المنصور يتباهى بجريمته النكراء قائلاً:

قَدْ فَضَضْنا خِتَامَ ذَاكَ السِّوارِ ... واصطَبَغنا من النَّجِيعِ(الدم) الجارِي

ونَعَمْنا......... (عرضت عن ذكر باقي الابيات لأنها تخدش الحياء)

وهذا يؤكد على أن الفحولة شئ، والرجولة شئ آخر. وأن البهيمية شئ، والإنسانية شئ آخر. وأن الرذيلة شئ، والفضيلة شئ آخر. وأن النجاسة شئ، والقداسة شئ آخر، وأن الإغتصاب شئ، والعفة شئ آخر.

ولست أجد كلاماً أصف به تلك الوحوش الآدمية، التي مسخت القيم الانسانية وشوهت المقاصد الربانية، أبلغ مما قاله الشاعر المصري اللبناني فؤاد بليبل في قصيدة المنبوذة، مخاطباً إحدى فتيات الليل بقوله:

أَسَألتِ مَن نَبذوكِ نَبذَ المُنكَرِ....... كَم بَينهُم مِن فاجِرٍ مُتستِّر

الخَيّرونَ وَهُم أَشَر بَني الوَرى .... الأَبرِياءُ وَلَيسَ فيهِم مِن بَرِي

الصائمون المُفطِرون عَلى الدِما .. الظامِئونَ إلى النَجيعِ الأَحمَرِ

الحانِثونَ بِكُل عَهد مُبرم............ .. العابِثونَ بِكل ذاتِ تَخفُرِ.

المُصلِحونَ ولَيس فيهِم مُصلِحٌ ...... الطاهرون وأَيهمم لم يفجُرِ

يتمرغون على القَذارَةِ وَالقَذى ..... وَيحَدثونك عَن صَفاءِ الكوثَر

جِيَف إذا نَزَت الهُموم فَهَمها .... حَشوُ البُطونِ وَكَسرُ كُلِّ مُجَبَّرِ

وَلَرب عاهرة أَعفُّ شَمائِلاً .... مِن كل عربيد تقِي المظهرِ.

نهت التوراةُ الرجلَ عن التطلع الى إمرأة الآخر، وذلك بالأمر الصريح: "لا تشته إمرأة قريبك"(تث5).

واعتبرت المسيحية نظرَة الرجلِ الى المرأة بقصد الشهوة زنى، وفقا لقول السيد المسيح: "إن كل من ينظر الى إمرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه"(مت5).

وشجب إبن سيراخ تلصص النظر داخل البيوت: "الجاهل يتطلع من الباب الى داخل البيت؛ أما الرجل المتأدب فيقف خارجاً"(سيراخ21).

وجاء في القران الكريم ما يدعوا الى مراعاة حرمة البيوت:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ..."(الاحزاب 53).

وإتفقت الشعوب على الحشمة وستر العورة، وإختلفوا فيما يجب ستره أو إظهاره من جسم المرأة والرجل بإختلاف الزمان والمكان والمناسبة والعرف والتقليد والدين. وإختلفت الاراء حول مسألة الحجاب: رأي يرى أنه مفروض على أمهات المؤمنين فقط؛ وآخر يرى أنه مفروض على كل المسلمات؛ وثالث يرى أن السائلين المتاع، هم المأمورون بالتواري والإحتجاب.

والقائلون بخصوصية الحجاب، يستدلون عليه بشواهد كثيرة منها أن الخليفة عمر بن الخطاب ضرب جارية بدرته لأنها إرتدت الحجاب وتشبهت بالحرائر. فلو كان الحجاب عاماً، وإذا كان الغرض منه هو عدم إثارة الرجل، لما إعترض الفاروق على إرتداء الجارية له؛ بل ولأمر كافة النساء بإرتدائه دون النظر الى مكانتهن الإجتماعية حرائر كن أو جاريات. ولَمَاَ فرضت العهدة العمرية على نساء أهل الذمة أن يرفعن الثياب عن سوقهن. فلو كان ما دون الركبة يدخل في نطاق العورة التي تثير شهوة الرجل، لما فُرض على الذميات أن يحسرن الثياب عنه ويعرضن الرجال للفتنة.

وكان إخفاء وجه المرأة في المجتمع القَبَلي أمرا ضروريا لان وضعها كان محفوفاً بالمخاطر حيث كانت النساء تذهبن لقضاء الحاجة في الخلاء. وكن يتعرضن الى ما لا يحمد من نظرات الرجال التي تخترق اللآ–مستور. وفي بعض القبائل، كان يتم وأد الإناث حتى لا يتعرضن للسبي والإغتصاب من أبناء القبائل العادية. وكان عدد من الرجال يشترك في وطئ إمرأة واحدة فيما يعرف بزواج الرهط. وفي بعض المجتمعات، كانت المرأة تُعار وتستعار مثل الدواب، وتباع وتشترى مثل البهائم. وهذه الأمور تلاشت. وأصبحت مكانة المرأة اليوم تفوق مكانة الرجل.

وفي البدء، خلق الله الرجل والمرأة عريانين، ولم يكسيهما ريشاً أو صوفاً؛ ومع ذلك لم يشعرا بالعري إلا عندما سقطا في المعصية، وتعرت نفساهما من القداسة؛ وأخذا يخصفان من ورق الشجر ليسترا به عورتيهما، فألبسهما الله أقمصة من جلد الحيوان. وبعد ذلك إستعمل الإنسان الملابس لكي يحمي بدنه، ويحجب عورته. وهذا يؤكد على أن عوار الجسد يبدأ من عوار النفس. وهدف الدين هو تحرير

النفس من عوارها، وتطهيرها من أوزارها. وتلك هي مهمة رجل الدين: تطهير الباطن قبل الظاهر، والجوهر قبل المظهر.

ونظرة الرجل الى المرأة أمر نسبي، يختلف بإختلاف الثقافات والمجتمعات، وبإختلاف الأفراد داخل المجتمع الواحد وبإختلاف الحالة الاجتماعية والعمرية للفرد الواحد. ففي المجتمعات المنفتحة قلما يتفرس الرجال في أجساد النساء. ولا يثير وجه المرأة أو شعرها شهوة الرجل قيد شعرة؛ أما في الأوساط المتزمته، فتتعرض النساء للتحرش. ولا يحول التزمت دون انتشار الشذوذ، والخيانة الزوجية، والدعارة، والزنى المستتر، والزنى المُقَنَّع والمقنن. وأعتقد أن السبب في ذلك هو الإهتمام بالشكل، دون الجوهر.

وإذا تعرت كل نساء الأرض، لن تتحرك الشهوة في قلب الرجل العفيف. وإن إحتجبت كل نساء الدنيا لن تزول الطفاسة من قلب الرجل المريض، المطعون بالشهوات، والمغلوب بالنزوات.

والرجل غير السوي، تثيره المرأة حتى وإن كانت محتشمة. ولا يحول زواجه دون شهوة النساء، ودون الرغبة في تغيير الوعاء. فتسوقه شهوته نحو أي إمرأة، سواء كانت سيدة في سن أمه، أو فتاة في عمر إبنته، أو طفلة مثل حفيدته. أما الإنسان العفيف فلا تثيره المرأة، وإن كانت سافرة الشعر أو عارية الصدر أو في ملابس البحر؛ بل يغض الطرف عنهن جميعاً. وينظر الى النساء نظرته لأُمه وإخته وإبنته. فالمشكلة نفسية أخلاقية ترجع الى سوء التربية والكبت والتزمت وضعف الإيمان.

وعندما ترى شخصاً يدافع عن المتحرشين، بحجة أن الفتيات متبرجات، يظهر لك الموطن الحقيقي للعوار. وبذات المنطق المعكوس، الذي يجرد الإنسان من عقله وإرادته، يتعين على أصحاب المطاعم أن يحجبوا الأطعمة عن الناس حتى لا ينقض عليها الجياع إنقضاض الذئاب على الفريسة! وبخاصة أن الجوع والعطش أشد من الحاجة الجنسية.

وآخر ما يحتج به القائلون بخصوصية الحجاب، وأنه لم يكن عاماً، هو أن مئات الألوف من سبايا الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب كانت تُعرَض في أسواق النخاسة، ويُسمح للرجال بمعاينة جسد المرأة–عدا من السرة الى الركبة– قبل شرائها، فلو كان الحجاب عاماً، ولو كان الغرض منه هو عدم إثارة الرجل، لما سُمح له بفحص جسدها قبل الشراء، وبوطئها بعده. ولما سُمح للرجال بالغزو وسبي النساء ووطئهن، إذا كان الغرض من حجب المرأة هو عدم إفتان الرجل؟! ولماذا الغزو والعدوان والقتل والسبي والاسترقاق والوطئ ؟!

ولماذا تختلف عورة الأمة عن عورة الحرة، وكل منهما إمرأة ؟ بل وكان الغزاة يسوقون مئات الألوف من حسان السبايا المجلوبات من بلاد الروم والفرس والبربر وغير ذلك. فيروى إبن عذاري في(البيان المُغرب) أن عقبة إبن نافع "أوغل في الغرب يقتل ويأسر أُمة بعد أُمة، وطائفة بعد طائفة...وأصاب منهم نساءً لم ير الناس في الدنيا مثلهن. قيل إن الجارية(الفتاة العذراء) منهن كانت تبلغ بالمشرق ألف دينار او نحوها"[1].

---

1) ابو العباس بن عذاري، البان المغرب، جـ 1، صـ 50– 52.

وقال طاهر المقدسي في(البدء والتاريخ) أن قتيبة إبن مسلم غزا الترك والسغد والشاش وفرغانة، وقتل منهم خمسين ألفاً وسبى ذراريهم. وأنه غزا بخارا وسمرقند(أوزبكستان)، "فبلغ سبى هاتين مائة ألف.. وليس في ذكورهم ولا إناثهم كهل"[1].

وقال أن سعيد بن حميد غزا بلاد ما وراء النهر في خلافة السفاح، "فضرب أعناقهم وسبى ذراريهم واستصفى أموالهم وعبر النهر من السبى غير مرة بخمسين ألفًا خمسين ألفًا"[2]. وقال أن جمهور العجلي غزاهم وحاربهم بين همذان والري "فقتل منهم ستين ألفًا وسبي من نسائهم وأولادهم ما الله به عليم". وقال ابن الاثير في(الكامل) أن الربيع بن زياد الحارثي سبى، خلال فترة ولايته على خراسان، أربعين ألف رأس من بلاد سجستان"[3].

وهذه مجرد أمثلة قليلة من مئات الوقائع؛ أما السؤال الذي يطرح نفسه فهو: كيف ندين شعر المرأة ووجهها، وفي ذات الوقت نبجل ونعظم ونفتخر بمن أيموها ويتموها وسبوها واسترقوها وعروها وباعوها وافتضوها واستعبدوها ؟!

ومن هنا، فلا يوجد في كشف المرأة لوجهها وشعرها ويديها أي عوار، بل إنه ينسجم مع دورها في الحياة؛ ولا يتعارض مع مقاصد الباري جل شأنه، الذي خلقها إنساناً عاقلاً ذا كرامة وإرادة حرة، ولم يخلقها جسداً معيباً، كله عوار في عوار.

---

1) المقدسي، البدء والتاريخ، جـ6، صـ 38.

2) المقدسي، البدء والتاريخ، جـ 6، صـ 75.

3) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ3، صـ 23.

فالعوار الحقيقي يكمن في نفوس الرجال الذين إحتقروها، وأيموها، وسبوها، وأهانوها، واسترقوها.

ومؤخراً دعى البعض الى نشر الحجاب في المجتمع الكندي، كما يدعون له في البلاد الأوربية والولايات الأمريكية، وفي أنحاء الكرة الأرضية. وهي دعوة مشكورة، ونحن نؤيد إرتداء المرأة للملابس المحتشمة، لكننا لا نؤيد تسييس الحجاب وربطه بالجنة والنار، وإتخاذه وسيلة للتمييز بين مواطنين ومواطنين. وليس الحجاب وحده هو سبيل حشمة المرأة؛ وليست الحشمة وحدها دليل عفتها وطهارتها. فكم من نساء يظهرن للناس محتشمات، ويفعلن في الخفاء الموبقات. وإن الربط بين الطهارة وارتداء الحجاب، وإقران الخلاعة بسفور الوجه والشعر، إنما يسئ الى ملايين المحتشمات من غير المحجبات، اللوات يتزين بالحشمة من دون حجاب، ويتحلين بالوقار من غير نقاب.

وليت الداعين الى فرض الحجاب أن يلتفتوا الى المشكلات المأزومة في المجتمعات الرديكالية حيث ضياع حقوق المرأة، وإضطهاد الأقليات، وزواج (إغتصاب) القاصرات، وتشريد الأطفال الناتج عن تعدد الزيجات وكثرة المطلقات. ناهيك عن الكراهية والإزدراء، والتمييز والإقصاء. والجهل والتكفير، والإرهاب والتدمير.

وإستنكر العلمانيون دعوة الأصوليين لنشر الحجاب في المجتمع الكندي معتبرين أنها محأولة لفرض هوية بعينها على مجتمع يقوم على تعدد الهويات والثقافات. ويأبى أن يصطبغ بصبغة أُحادية. وأن تُفرض عليه الفرائض العقدية التي لا ينبغي أن تخرج الدعاية لها عن نطاق دور العبادة. فلو فُتح الباب، لسعت كل طائفة الى

فرض هويتها الدينية على المجتمع. فيطالب اليهودي بالإمتناع عن تناول لحم الخنزير والأرنب والجمل والنعامة والغزال، لأن التوراة حرمت أكلها. ويطالب المسلم غير المسلمين بعدم الجهر بالإفطار في رمضان. ويطالب بتعدد الزوجات، وبملكات اليمين، وبقطع يد السارق، وبرجم الزانية، وبغير ذلك مما يصطدم بثوابت المجتمع الكندي والإنساني. وبمرور الوقت، تتكون هيئة تفرض بالقوة ما تحسبه معروفاً، وتنهى بالعنف عما تظنه متلوفاً. ثم تتألف مجموعات إرهابية تتبنى الجهاد، والحاكمية، والولاء والبراء،... وهلم جرا !

وعلينا أن نحمد الله، على أننا نعيش في بلد آمن–حتى الآن– يمارس فيه كل شخص حريته الدينية. ولأن دستوره يهب حق المواطنة لكل مهاجر إليه دون النظر الى لونه وجنسه ودينه. ولأن أهل هذا البلد لا يكفروا من لا يدين بديانتهم؛ ولا يعتقلوا من يبشر بغير ملتهم؛ ولا يقتلوا من خرج عن جماعتهم؛ ولا يصادروا كتباً لغير عقيدتهم. ولا يفجروا بيوتاً لغير عبادتهم؛ ولا يمنعوا منصباً عمن لا ينتحل بنِحْلَتِهِم. ولا يوصدون الأبواب أمام أبناء المختلفين من الإشتراك في أنديتهم...الى آخر تلك الممنوعات التي تسود بلاد المؤمنين حيث يُطنطن بالعدل والمساواة ليل نهار، ونحن أظلم من عرفت الأرض، على مر التاريخ ومدى الجغرافيا.

وإن أفضل شئ نعمله تجاه المجتمع الكندي هو أن نتركه على حاله، وأن نأخذ منه ما يعنينا، ونترك له ما لا يرضينا؛ فهو في غنى عن دعوات حجابنا، وطلقات تكفيرنا، ونظرات تحقيرنا !

يقول أبو الفدا في(المختصر في أخبار البشر) أن الناس قبل الطوفان كانوا يتكلمون العبرية. وأن عابر لم يوافق بني نوح، "واستمر على طاعة الله، فبقاه الله تعالى على اللغة العبرانية، ولم ينقله عنها".

ونقل إبن العبري عن غيره أن الناس من آدم الى عابر كانوا يتكلمون لغة واحدة هي السريانية. وقال أيضا نقلاً عن شخص يدعى يعقوب الرهاوي، أن اللغة لم تزل عبرية الى أن تبلبلت الألسن في بابل. وقال إبن النديم في الفهرست: "قال تيادورس المفسر في تفسيره للسفر الأول من التوراة أن الله تبارك وتعالى خاطب آدم باللسان النبطي؛ وهو أفصح من اللسان السرياني، وبه كان يتكلم أهل بابل. فلما بلبل الله الألسنة، تفرقت الأمم الى الأصقاع والمواضع".

وهذه كلها أقوال ظنية لا تستند الى دليل علمي مقنع. لأن بلبلة الألسن تعني أن الناس باتوا يتحدثون لغات مختلفة عما كانوا يتحدثونه من قبل. ولعل هذا ما جعل هامرتن يقول بعدم وجود أصل واحد للغة. كما أن اللغات التى نشأت بعد الطوفان، لم تنشأ بكل مفرداتها دفعة واحدة. ولم تكن بالثراء الذي آلت اليه بعد قرون من التطور والتفاعل الحضاري بين الإنسان وبيئته من جانب، وبين الشعوب وبعضها من جانب آخر. وقد كانت اللغات في مهدها بسيطة ومحدودة، تناسب الحياة البدائية التي كانوا يعيشونها في ذلك الحين، ثم تطورت بالتطور الحضاري.

ويقول جون هامرتين في(تاريخ العالم): "إننا إذا حاولنا أن نعرف منشأ اللغات، فلن نجد أمامنا سبيلاً سوى الحدس والتخمين.. وأن من الخطأ أن نتوقع وجود

أصل واحد للغة..وقد يكون بين بعض اللغات صلات من القربى، ولكنها تفترق على مر الزمن".

وأعتقد أن الناس، بعد الطوفان، كانوا يتكلمون لغة واحدة عندما كانوا يعيشون في نطاق محدود من الأرض المعمورة آنذاك. ولكن هذه اللغة قطعاً غير معروفة، ومن الصعب القول بأنها هذه أو تلك من اللغات التي يقدر عددها بالألآف والتي هي مختلفة عن بعضها إختلافاً بيناً بحيث يعجز المتكلم بإحداها عن فهم المتحدثين بغيرها. فيعجز المتحدث بالعربية–مثلاً–عن فهم المتكلم بالروسية أو اليابانية أو الألمانية، ناهيك عن الصعوبة التي يجدها الدارسون للغات الأجنبية في معاني الكلمات، وفي مخارج الألفاظ والأصوات. ففي الفرنسية نجد أصواتاً أنفية، ويجد الاوربيون صعوبة في نطق صوت(الحاء السامي)، وصوت(الخاء) الموجود في اليونانية والروسية والعربية والقبطية والعبرية والآرمية. وهذا يدل على إختلاف اللغات لإختلاف الأجناس.

ويوجد تشابه صوتي بين لغات الشعوب المتفقة في العرق والمتجاورة في المكان كما هو الحال في اللغات السامية كالعربية والعبرية والآرامية لأنهم ينتمون الى أصل سامي واحد. وكما هو الحال في بعض اللغات الأوربية، وبعض اللغات الإفريقية. ومع ذلك فإن الإتفاقات تتضائل كثيراً أمام الإختلافات الكثيرة بحيث أن لكل شعب مفرداته اللغوية والثقافية، وخصوصياته الجغرافية والحضارية.

كما يوجد تشابه بين بعض اللغات السامية والحامية واليافثية(الهندو –اوربية) وذلك يرجع الى التجاور المكاني والى عوامل الهجرة والحروب الدائمة وما كان يتبعها من سبي وتهجير وإحلال وتبديل. فذكرت سجلات الامبراطورية الاشورية بشئ من

المبالغة أن مجموع من تم تهجيرهم قسرياً خلال ثلاثة قرون بلغ خمسة ملايين وأربعمائة الف إنسان، بعضهم من الساميين كالعرب والعبرانيين والاراميين؛ وبعضهم من الحاميين كالكنعانيين والمصريين والكوشيين؛ وبعضهم من اليافثيين كالأرمن(الأورارتيين) والميديين والسكيثيين. وما حدث في ربوع الامبراطورية الآشورية حدث في ربوع باقي الامبراطوريات: السومرية، والمصرية، والبابلية، والعيلامية، والصينية، واليونانية والرومانية والعربية والمغولية والتركية والروسية والفرنسية والانجليزية.

ويمكننا أن نفسر التشابه بين بعض المجموعات اللغوية على إعتبار أن الشعوب خرجت من أصول ثلاث هم أبناء نوح: سام وحام ويافث. وأنهم عاشوا معاً ردحاً من الزمن قبل أن يتفرقوا. ولما تفرقوا، كانوا متجاورين، ولم تنقطع بينهم الصلات والإتصالات سواء بالطرق السلمية أو بالطرق العدوانية. أي من خلال الهجرة والتهجير والغزو والاحتلال والسبي والإسترقاق. وكثيراً ما كانت تنصهر الشعوب الغالبة والمغلوبة فيما بينها، وتنشأ عن إندماجها لغات ولهجات جديدة. ومن أمثلة ذلك نجد اللغة الأسبانية نشأت عن إندماج اللاتين مع الوندال، كما أنها تأثرت بلغة العرب والبربر الذين إحتلوا شبه الجزيرة الإيبيرية لنحو ثمانية قرون(711- 1492م).

ونشأت الألمانية عن إندماج الجرمان بالرومان. والقبطية، عن تفاعل المصريين مع الإغريق في العصر اليوناني الروماني(332 ق.م-641م). وتكونت العامية المصرية التي نتحدثها اليوم من العربية والقبطية بصفة أساسية ودخلت اليها ألفاظ فارسية وتركية وإنجليزية وفرنسية. وهي تحتوي على الآف المفردات المصرية غير العربية،

كما أنها تلتزم قواعد الصرف للغة القبطية والمصرية القديمة، كإستعمان الجملة الإسمية، وأسماء الإشارة، وأدوات الإستفهام وغير ذلك. فنقول: مريم راحت فين ؟ ولا نقول: أين ذهبت مريم؟ ونقول: "إديني الفوطة دي" ولا نقول: "أعطني هذه المنشفة". ونقول: "حط الحاجة على الترابيزة". ولا نقول: "ضع الشئ على المنضدة"...الخ.

وما يقال على العامية المصرية، يقال عن الدارجة في بلاد المغرب وهي مزيج من الأمازيغية والعربية والفرنسية.

ولا تعبر اللغة عن العرق في جميع الأحوال، ففي بلاد المغرب يتحدثون الفرنسية– الى جانب العامية–ولكنهم ليسوا فرنسيين. وفي مصر لا يلغي تحدثنا بالعربية–الى جانب المصرية–كوننا مصريين حتى النخاع. فقد ذابت الجيوش الغازية التي كانت تقدر بالالآف في الأكثرية المصرية التي كانت تقدر بالملايين. وتجنس من بقي من الوافدين من العرب والمغاربة والاتراك والمماليك وغيرهم بجينات السكان الأصليين، وتعودوا بعاداتهم، وتخلقوا ببعض أخلاقهم، إلا من شذ.

ومؤخراً ذهب بعض الباحثين غير المدققين الى قول غريب وعجيب وهو أن العرب واللغة العربية هم أصل المصريين واللغة المصرية، وأصل الامازيغ واللغة الأمازيغية، وأصل الفينيقيين واللغة الفينيقية، وأصل الأكديين واللغة الأكادية. بل وذهب البعض الى أن العرب هم أصل جميع الشعوب؟ وكأن نوح عليه السلام لم ينجب سوى أبا العربي، ومنه خرجت الشعوب والأجناس! ودليلهم في ذلك هو وجود تشابه بين بعض المفردات العربية وبين بعض مفردات تلك اللغات، غير ناظرين الى عشرات الالوف من الكلمات المختلفة في النطق والمعنى، أي أن هذا

الدليل اللغوي الذي يتخذونه لإثبات الإدعاء هو نفسه أكبر دليل لنفي الإدعاء. فلا يستطيع المتحدث بالعربية أن يفهم المتحدث بأي من تلك اللغات ما لم يكن درسها أو عاش بين أهلها. ناهيك عن الإختلافات العرقية والحضارية والثقافية والجغرافية بين هؤلاء وأولئك.

كما أن شبه الجزيرة العربية سكنتها قبائل سامية وأخرى حامية. وكانت هذه القبائل تتحدث لغات متباينة عن بعضها. فإن لغة الحميريين تختلف عن لغات السبأيين والمعينيين والحجازيين والمديانيين، وعن لغات سكان شاطئ الخليج العربي وبحر عمان. وفوق ذلك أن لغة أهل الحجاز التي إنتشرت بعد الاسلام بفعل الفتوحات، كما يقول المؤرخون المسلمون، كانت لغة إسماعيل. ومعروف أن اسماعيل أنجبه أبوه إبراهيم من هاجر المصرية، وأن إبراهيم أصله من أور الكلدانيين. ومن ثم فإن لغة اسماعيل هي مزيج من لغة أبيه الكلدانية ولغة أمه المصرية، ولغة العرب الذين عاش بين ظهرانيهم. ولهذا يطلقون على نسله إسم العرب المستعربة. ويعلل أبو الفدا سبب ذلك بقوله: "لأن إسماعيل لم تكن لغته عربية، بل عبرانية، ثم دخل في العربية، فلذلك سمي ولده العرب المستعربة"[1].

وتطورت هذه اللغة قبل الإسلام بفعل الهجرة والتجارة والمصاهرة والحروب والسبي. وإزدادت ثراءاً بعد الاسلام بفعل الفتوحات التي إمتدت الى آفاق بعيدة وإستغرقت شعوباً وأجناساً عديدة. وجلبت مئات الألوف من السبايا اللوات وطئن وإستولدن. وكان لهن أثر كبير على لغة أطفالهن. وهذا يبرر وجود التشابه بين الألفاظ التي دخلت الى اللغة العربية حتى ظننا أنها عربية الأصل، وبين أصولها

1) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، جـ 1، صـ 133.

الأعجمية التي أتى بها الأسرى والسبايا من بلادهم؛ أو التي إنتقلت مع الجنود الغازية ومع القبائل التي نزحت واستوطنت في البلاد المحتلة. وما يقال عن الامبراطورية العربية يقال عن غيرها من الامبراطوريات. فيكفي أن تعرف أن ستين بالمائة من سكان روما كانوا من الاسرى والمهجرين. وأن سبايا الأمازيغ، الذين سباهم موسى إبن نصير وحده، تجاوزوا المائتين وخمسين ألفاً، بخلاف سبايا من سبقوه مثل عبد الله ابن سعد ومعاوية ابن حديج وحسان ابن النعمان وابي المهاجر دينار وعقبة ابن نافع الفهري. وبخلاف السبايا المجلوبات من بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر والهند وجزر البحر المتوسط، إضافة الى أثر اللغات المحلية في لغة العرب الوافدين، والعكس. ومن ثم فمن الصعب أن تجد لغة خالصة مائة بالمائة، لم تتأثر بغيرها من اللغات، وإن وجدت فلربما بين القبائل المنعزلة في مجاهل القارات. لأنه لم يضرب حول كل شعب سور حديدي يبلغ عنان السماء فيحول دون الاتصال والتواصل والهجرة والتهجير بين شعوب الارض. كما لا ننسى أن الشعوب جميعاً خرجت من أصل واحد هو نوح، وأنهم عاشوا معاً ردحاً من الزمن وكانوا يتكلمون لغة واحدة. ولما تبلبلت ألسنتهم تبعاً لبلبة أفكارهم وإفترقوا وتفرقوا في الارض، ظلت بعض كلمات عالقة في أطراف ألسنة بعضهم. وظلت هذه الكلمات متداولة جيلاً بعد جيل. ولهذين السببين لا نستغرب من وجود كلمات متشابهة بين شعوب متباينة عرقياً وجغرافياً. فنجد كلمة (top) الانجليزية، والتي تعني قمة، قريبة في النطق والمعنى من (Tep) المصرية القديمة بمعنى رأس، وقمة. ونجد أن كلمة(سسو) المصرية القديمة بمعنى(ستة)قريبة في النطق والمعنى من كلمة سيس(six) الفرنسية، و(شيش) الفارسية. وكلهم بمعنى واحد. ويتشابه

ضمير المخاطب المفرد في الروسية(te) مع نظيره في اللغة الفرنسية(tu). ويتشابه الضمير(أنت) في العربية مع نظيره في اليابانية (anata) بينما تختلف باقي الضمائر إختلافاً كلياً.

وتتطابق كلمة (juges) الفرنسة في معناها مع كلمة (jajat) المصرية القديمة والتي تعني قضاة. وتتفق كلمة (encensoir) الفرنسية، والتي تعني مبخرة، مع كلمة(sen ser) المصرية القديمة، والتي تعني بخور....وهلم جرا. ولا ينبغي أن تقودنا السذاجة الى الاعتقاد بأن المصرية كانت أصلاً لباقي اللغات، ولا أن الشعب المصري–أوغيره– كان أصلاً لباقي الشعوب؛ لأنه وإن وجدت بعض كلمات متناثرة بينها الإ أنه توجد عشرات الالوف من الكلمات المختلفة، ناهيك عن التباين العرقي والجيني والمكاني والثقافي والحضاري. والشئ الذي يتفقون فيه أنهم خرجوا من أصل واحد هو نوح وأبنائه الثلاثة الذين كانوا يتكلمون لغة واحدة. ثم إفترقوا وخرجت منهم شعوب وقبائل.

واللغة لم تهبط من السماء، ولكنها منتج بشري صرف. وهي أداة نستعملها للمدح كما نستعملها للذم: بها نلعن العباد، وبها نُسبِّح رب العباد. بها نقول الصدق ونعلن الحق، وبها نتملق ونقول الكذب. بها نمدح ونجامل، وبها ننتقد ونماطل. بها نتواضع ونتدانى، وبها نتغطرس ونتعالى. بها نبرر الأشرار، وبها ندين الأبرار. بها ندافع عن الحق، وبها ندافع عن الباطل. بها نَصْدُق ونصون، وبها نخدع ونخون. بها نعبر عما يجول بخاطرنا من أفكار ومشاعر إنسانية، وبها نعبر عن إحساسات جسدانية وسلوكيات بهيمية. بها يمدنا المفكرون برؤى إنسانية مضيئة؛ وبها ينضح علينا آخرون بآراء ظلامية مشينة.

وباللغة يعبر الناس عن إيمانهم، وبها يعبرون عن إلحادهم. باللغة يقول الوحي: "إن الرب هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من أسفل ليس سواه"(تث4). وبها قال الشيطان: "اصعد فوق مرتفعات السحاب، أصير مثل العلي"(إش14). وبها أيضا "قال الجاهل في قلبه ليس اله"(مز14).

وعلى الرغم من أن اللغة الكلامية هي أسهل طرق التواصل بين الناس؛ لكنها ليست الوسيلة الوحيدة للإتصال والتخاطب مع الآخرين، فهناك الإيماءات والإشارات التي يستعملونها لكافة الأغراض الحسنة والسيئة. وعلى هذه أيضا يُقدم الإنسان حساباً يوم الدين. واللغة في حد ذاتها لا تُثاب ولا تُعاب، وإنما يمدح الناس ان احسنوا الكلام، ويعابوا إن أساءوا التلفظ به، "لأنك بكلامك تتبرر، وبكلامك تدان"(مت12).

واللغة لا تستعمل فقط لإظهار ما نبطن، ولكنها تستعمل أيضا للكذب ولتضليل العدالة. ولذلك يلجأ المختصون بعلم النفس والسلوكيات الى قراءة حركات الجسد، وتعبيرات الوجه التي تفضح صاحبها، وتعبر عن حقيقة ما تخفيه اللغة الكلامية من نوايا عدوانية أو رغبات وجدانية.

وباللغة تغنى الشعراء بالفضائل والقيم الإنسانية. وبها أنشدوا كلاماً طيباً لتمجيد العزة الإلهية. وبها نافقوا السلاطين والحكام على حساب الرعية. وبها هجا بعضهم بعضاً بكلمات نابية، مما يخدش الحياء، ومما يقال في مجالس اللهو والبغاء. مما لا يليق ذكره بمقالي هذا، ولا بمقام السادة القراء.

واللغة ليست وحياً مقدساً نرتله ونتعبد له. وهي ليست حاكماً نخلع عليه حلة الملك وتاج الرياسة؛ ولا تابوهاً ننسج حوله هالات المجد والقداسة. ولكنها إختراع

إنساني بحت، ونتاج عقلي محض. هي وسيلة لحفظ التاريخ ولنقل العلوم وللتواصل بين الناس. ويمكن للإنسان أن يتعلم غيرها من اللغات؛ ويضع ثقافته في قالب لغوي جديد. أما أننا نجعل منها صنماً نتعبد له، ومعبوداً نتغنى بأوصافه، ونغلق عليها وعلينا باب العزلة؛ ولا ننفتح على لغات العالم الذاخرة بالمفردات والمصطلحات العلمية، فإننا نظل كما نحن نستورد ونستهلك ونقلد. ولا نقدر، بلغتنا الثرية أدبياً والفقيرة علمياً، على اللحاق بخطى الإنسانية وبركب التقدم المنتج والمكتفي؛ بل نظل طيلة الدهر نعدوا وراءه لكي نلتقط الفتات المتساقط من مائدة أربابه.

ولا يمكننا أن نقول بأن هناك لغة مقدسة وأُخرى مدنسة؛ فما اللغة إلا أداة للتفاهم بين الناس، ولتلاقي الأعراق والأجناس. إنها أداة للتعبير عما تنتجه عقولنا من أفكار بناءة وأُخرى بالية، وما يختلج وجداننا من مشاعر سامية وأحاسيس دانية. فهي مثل الإناء الذي نضع فيه السم المميت كما نضع فيه الدواء الشافي. وأما المقدس والدنس فهو المضمون وليس الشكل، الصورة وليس الإطار. وهي مثل الهواء الذي ينقل إلينا كل ما يمر به فننتشي عندما ينقل الينا عبق الأزهار والورود والرياحين. كما يثير فينا الإشمئذاز والتأفف عندما ينقل الينا ما تبعث به جيف الرجعية من مخلفات الدهور والسنين.

السلام يا أهل السلام !

الفارق بين التعصب وبين التمسك بالعقيدة هو بعينه الفارق بين من يُضطَهد ويموت من أجل عقيدته، وبين من يُبغِض ويَضطهد ويَقتل من لا يعتقد بعقيدته، ومن لا ينتحل بنِحْلته.

وأذكر أنني عندما إلتحقت للدراسة بإحدى الجامعات، أنني تعرفت الى بعض الوافدين من جنسيات مختلفة ممن يتحدثون لغات متنوعة كالصينية والأسبانية والإنجليزية والفارسية، الى جانب الفرنسية وهي لغة مقاطعة كيبك، ومن ثم كانت هي لغة التعلم والتفاهم بين الطلاب وبعضهم وبينهم وبين المدرسين.

وذات يوم، وبينما كنت أتجه الى قاعة الدرس أن صادفت زميلين يقفان أمامها، فالقيت عليهما تحية الصباح بالفرنسية. فرد أحدهما التحية دون جدل أو جدال؛ بينما أنف الزميل الآخر ردها. وبادرني بتوجيه اللوم قائلا: "قل السلام يا أخي".

فقلت له: "السلام عليك يا أخي". فإنفرجت أساريره. وقال: "هكذا تكون تحية الإسلام". فقلت له: "ليس من السلام ألا تحترم سلام الآخرين". وإنتهى الأمر عند هذا الحد. وفضلت التوجه الى المحاضرة على الإسترسال في جدل لا طائل منه.

ولكن دار في خلدي أن زميلي هذا-كغيره من الأُصوليين-يتعصب للسلام فيجرده من معناه. ولعله يدري، أو لا يدري أن تحية السلام قديمة بقدم الإنسان على الأرض. وقد كانت ولا تزال تحية الناطقين باللغات السامية، وغير السامية، فيستعملها اليهود والسريان وعرب الجاهلية وغيرهم. ويستخدمها المسيحيون في صلاة القداس فيقول الكاهن: "السلام لجميعكم". ويرد المصلون: "ولروحك ايضاً".

ووردت الكلمة بمعانيها ما يقرب من خمسمائة مرة في الكتاب المقدس. فقد إستعملها يوسف في خِطابه لإخوته وقال لهم: "سلام لكم لا تخافوا" (تك43). وقال الملاك لجدعون "السلام لك لا تخف"(قض6).

وبالسلام خاطب عماساي القائد داود النبي وقال له: "سلام لك، وسلام لمساعديك، لأن الهك معينك"(1اخبار12). وبالسلام بارك الملاك طوبيا وأهله، "فقال لهما الملاك سلام لكم لا تخافوا" (طوبيا12). ومثله قول الملاك لدانيال النبي "سلام لك"(دا10).

ولم تقتصر تحية السلام على أنبياء الله، ولا على بني اسرائيل. وإنما كانت تحية الشعوب الوثنية أيضاً. وكان الملوك والحكام يفتتحون بها رسائلهم ويختمونها بها. ففي رسالته الى رعاياه قال نبوخذنصر ملك بابل: "من نبوخذنصر الملك الي كل الشعوب والأمم والألسنة الساكنين في الأرض كلها، ليكثر سلامكم"(دا4).

وكانت تحية السلام شائعة الإستعمال في صدر المسيحية؛ فسلم الملاك على السيدة العذراء مريم بالتحية المتعارف عليها والشائعة عند قومها وقال لها: "سلام لك أيتها المنعَم عليها. الرب معك. مباركة أنت في النساء"(لو1).

وكان السيد المسيح عندما يلتقى حواريه يقول لهم: "سلام لكم". فيروي القديس لوقا البشير ذلك بقوله: "وفيما هم يتكلمون بهذا، وقف يسوع نفسه في وسطهم، وقال: لهم سلام لكم"(لو24).

ولم يكن قوله مجرد تحية أو كلمة عابرة يعلن بها عن حضوره؛ بل كانت نعمة ربانية تبعث الطمأنينة في نفوسهم. ولذلك قال لتلاميذه: "سلاماً أترك لكم. سلامي أعطيكم. ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا"(يو14). وأوصاهم أن يذهبوا للكرازة

مؤيَدين، لا بسيف النقمة، وإنما بمواهب النعمة، ومنها نعمة السلام. وأن يمنحوها للناس. وأن يقرنوا السلام بعمل الخير، فقال لهم: "وأي بيت دخلتموه فقولوا أولاً سلام لهذا البيت، فإن كان هناك إبن السلام، يحل سلامكم عليه، وإلا فيرجع اليكم...إشفوا المرضى الذين فيها. قولوا لهم: قد إقترب منكم ملكوت الله"(لو10). ولهذا إستحق رسل المسيح أن يقال عنهم: "ما أجمل أقدام المبشرين بالسلام، المبشرين بالخيرات"(رو10).

وكما أوصاهم أن يدخلوا البلاد بالسلام، أوصاهم أيضاً أن يخرجوا منها بالسلام، حتى وإن رفض أهلها دعوتهم، قال: "ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم، فاخرجوا خارجاً من ذلك البيت أو من تلك المدينة، وانفضوا غبار أرجلكم"(مت10).

وإختبر المؤمنون سلام المسيح في قلوبهم فقال بولس الرسول: "ليس ملكوت الله أكلاً وشرباً، بل هو بر وسلام، وفرح في الروح القدس"(رو14). "لأن إهتمام الجسد هو موت، ولكن إهتمام الروح هو حياة وسلام"(رو8).

وفي رسائله كان يسلم على المؤمنين ويدعوا لهم بالسلام: "سلام على الأخوة"(اف6)، "نعمة لكم وسلام من الله أبينا"(1كو1).

وكان يختم رسائله بذات الدعاء: "وسلام الله الذي يفوق كل عقل يحفظ قلوبكم وأفكاركم"(في4). "ورب السلام نفسه يعطيكم السلام دائما"(2تس3). وفي رسالته الى تيطس قرن الرحمة والنعمة بالسلام: "نعمة ورحمة وسلام من الله "(1تي1).

وكذلك إشتملت رسائل رفاقه من الرسل على الدعاء بالسلام؛ فقال مار بطرس: "لتكثر لكم النعمة والسلام" (2بط1).

وقال مار يوحنا: "تكون معكم نعمة ورحمة وسلام من الله"(2يو1)، "نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان"(رؤ1).

وبعد هذا، يملكنا العجب عندما نستمع الى أحد الأئمة الأفاضل وهو يفتى- عبر إحدى القنوات-بأن الزوج المسلم يجب عليه ألا يقرن السلام لزوجته المسيحية. قال: "يجوز نكاح أهل الكتاب مع الكراهة...لو دخل البيت ميبديهاش بالسلام". ولعل فضيلته استند الى واحدة من مجموع فتاوى الكراهية كتلك التي وردت في كتاب(الإقناع في حل الفاظ ابي شجاع)، والتي تقول: "ولا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام، إذا لقيتم أحدهم في طريق فإضطروه الى أضيقه...ولا يوَقَرون في مجلس فيه مسلم، لأن الله تعالى أذلهم".

وفي شرحه لمتن ذلك الكتاب الصادر عن مؤسسة الأزهر الشريف، والذي يتم تدريسه للنشئ، يقول الفقيه: "قال النووي: وأما أهل الذمة فإختلف أصحابنا فيهم فقطع الأكثرون بأنه لا يجوز إبتداؤهم بالسلام. وقال آخرون: ليس هو بحرام بل مكروه، فإن سلموا على مسلم قال في الرد: وعليكم ولا يزيد على هذا".

وفي ذات السياق يفتى بأن المسلم إذا القي السلام على شخص ظنه مسلم ثم اكتشف أنه كافر فعليه أن يطالبه برد السلام! يقول:

"قال المتولي: ولو سلم على رجل ظنه مسلماُ فبان كافراً، يستحب أن يرد سلامه فيقول له: رد على سلامي. والغرض من ذلك أن يوحشه ويظهر له أنه ليس بينهما أُلفة ". ويقول بشأن تحية الذمي: "ولو أراد تحية ذمي فعلها بغير السلام بأن يقول هداك الله أو أنعم الله صباحك. وهذا لا بأس به. وإذا إحتاج اليه فيقول صبحت بالخير أو بالسعادة...وأما إذا لم يحتج اليه فالإختيار أن لا يقول شيئاً فان ذلك

تبسط له وإيناس وإظهار صورة ود ونحن مأمورون بالاغلاظ عليهم ومنهيون عن ودهم فلا نظهره".

والغريب أن من يؤيدون ذلك ويعلمون به لا يدرون- وربما يدرون- أنهم هم أنفسهم من أحفاد أهل الذمة، وأن ما يحملهم على كراهية وبغض إخوانهم في الوطن، هو بعينه ما حمل على كراهية، وبغض أجدادهم بالأمس، ودفعهم الى ترك دينهم.

وعلى عكس فتاوى الكراهية والبغضة، أمر السيد المسيح-له كل المجد- أتباعه أن يحبوا من يسئ إاليهم وأن يصلوا من أجله (مت5).

والسلام ليس مجرد كلمة نرددها، ونحن نضمر البغضة للآخرين، ونبتسم في وجوههم، وقلوبنا تلعنهم. وليس هو أداة نزيد بها مساحة التشرذم والتعصب والكراهية. ولا معنى لأن نطنطن بالحديث عن السلام، وقلوبنا ممتلئة بالحقد والخصام. ولا معنى لسلام تصحبه السيوف والرماح.

وبدلاً من إضاعة الوقت في السلام والكلام، علينا أولاً أن نعيد النظر في كل ما يدعوا الى البغضة والكراهية، لكي يعم السلام الأرض التي غطاها الرديكاليون بوشاح الكراهية، ورووها بدماء الأبرياء، تارة بالتحقير وتارة بالتكفير، وطوراً بالارهاب والتدمير، لكي تنسجم الأقوال مع الأفعال.

إعتمد الاخباريون والشعراء العرب على أهل الكتاب في الكثير من الأخبار التي لها علاقة بالتوراة مثل قصة آدم وحواء، وقايين وهابيل، ونوح والطوفان، وابراهيم، ويوسف، وموسى، وغيرها. وأخذوا عن النساطرة بعضاً مما ورد بالانجيل عن السيد المسيح والعذراء ويوحنا وذكريا. ونظم شعراء الجاهلية، مثل امية إبن ابي الصلت وعمرو إبن زيد، الكثير من القصص التوراتية.

وفي(المُفَصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) أشار الدكتور جواد علي الى تأثر أهل الأخبار بأهل الكتاب، بقوله:

"ان اكثر رواة هذا النوع من الأخبار كانوا قد استقوا من معين واحد. هم مسلمة أهل الكتاب، مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، ومحمد بن كعب القرظي، ورجل من أهل تدمر عرف بـ "أبي يعقوب" كان يهودياً فأسلم.. وكان محمد إبن إسحاق صاحب السيرة يعتمد على أهل الكتاب، ويكثر الرواية عنهم، ويسميهم أهل العلم الأول".

وتدل إقتباساتهم الكتابية على أنهم ما كانوا يملكون كل أسفاره في ايديهم. ولهذا فقد اضافوا للأخبار والحوادث الكتابية ما لم يرد فيها، بل وما يخالفها في كثير من الاحيان. فنراهم يسردون ما ورد في الكتب المنحولة مع ما ورد في الكتب النبوية مازجين هذا بذاك، الى جانب ما اضافوه من عندهم لكي يزيدون به أوراق صحفهم، ويشحذوا بها الباب قرائهم. ويؤكد جواد على ذلك بقوله: "إن علمهم بالأمور الواردة في التوراة لم يكن علماً راسخاً، وإن علم محدثيهم من أهل الكتاب لم يكن راسخاً

أيضاً. ولم يكن مستمداً من التوراة رأساً، بل من السماع والرواية في بعض الأحايين".

ومن بين الاغلاط الكثيرة التي وصلت الينا فيما يتعلق باخبار الكتاب- والكتاب منها براء- خلافهم في عُمر اسحاق، ما بين مئة وستين سنة كما ذكر إبن الأثير في الكامل، ومئة وخمس وثمانين سنة كما أخبرنا المسعودي في مروج الذهب.

وأخبرنا الطبري في تاريخه عن إختلافهم في عمر إبراهيم قال: "مات إبراهيم عليه السلام وكان موته وهو إبن مائتي سنة وقيل إبن مائة وخمس وسبعين سنة".

وذكر إختلافهم في مدة حمل إمرأة زكريا ما بين ساعة، وثلاث ساعات. ومن الأشهر، ستة وثمانية وتسعة، قال: "وولدت إمرأة زكرياء يحيى، وقد إختلف في مدّة حملها، فقيل: تسعة أشهر، وهو قول النصارى، وقيل: ثمانية أشهر..وقيل: ستة أشهر، وقيل: ثلاث ساعات، وقيل: ساعة واحدة". واخبرنا بإختلافهم في عمر العذراء وقت حملها، قالوا: "حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، وقيل: عشرون".

ونقل إبن الاثير إختلافهم في نسب الإسكندر، فهو عندهم أخ غير شقيق لدارا (داريوس)، وهو إبن فيلبس، وهو ابن مصرايم، قال."وقد ذكرنا قول من قال أن الإسكندر أخو دارا لأبيه، وأما الروم وكثير من أهل الانساب فيزعمون أنه الإسكندر بن فيلفوس، وقيل فيلبوس بن مطريوس، وقيل: إبن مصريم بن هرمس بن ميطون بن رومي بن ليطي بن يونان بن يافث بن ثوبة بن سرحون بن روميط بن زنط بن توقيل بن رومي بن الأصفر بن اليفز بن العيص بن اسحاق بن إبراهيم".

وبعدما جال الراوي بالإسكندر بين أمم الشرق والغرب والشمال والجنوب، وأضاف أسماءً لا تمت له بصلة، إنتهى به الى ابراهيم. ومعروف أن ابراهيم هو من سام؛ بينما الإسكندر المقدوني خرج من قلب الشعوب المنتهية الى يافث إبن نوح. وكانت بينه وبين دارا (داريوس) الفارسي حروب ومعارك ضارية. واحتلت اخبار الملكين مساحة كبيرة في اثار وكتب الشرق والغرب التي لم يكن لسكان البادية علم بها من قريب أو من بعيد. ولما بلغوها جعلوا من بعضها جسرا لمرور الخيل ولبعضها الآخر وقودا لحمامات الإسكندرية.

وبلغ إختلافهم التاريخ العربي ذاته، ومنه ما اورده أبو الفدا في مختصره، فذكر خلافاً حول رأس قبيلة ثقيف، قال:

"وقد قيل: ان ثقيفاً من إياد، وقيل من بقايا ثمود". والبون شاسع بين ثمود وإياد. وأشار الى إختلاف غريب وعجيب عن علاقة(عيلان) بـ (مُضِر) فقالوا ان عيلان هو إبن مضر، وهو حفيد مضر، وهو فرس مضر، وهو كلب مضر **!!!**

بل ووصل الأمر الى الإختلاف في أعمار أبرز أعلام التاريخ الإسلامي، فذكر جلال الدين السيوطي في (تاريخ الخلفاء) إختلاف الرواة في عمر الخليفة عمر. فقيل أنه توفي وله "ثلاثا وستون، وقيل ست وستون، وقيل إحدى وستون، وقيل ستون، ورجحه الواقدي، وقيل تسع وخمسون، وقيل خمس أو أربع وخمسون". وفي عمر الخليفة عثمان: "وكان قتل عثمان في اواسط أيام التشريق من سنة خمس وثلاثين.. وكان له يوم قتل اثنان وثمانون سنة، وقيل إحدى وثمانون سنة، وقيل أربع وثمانون سنة، وقيل ست وثمانون، وقيل ثمان أو تسع وثمانون، وقيل تسعون",

وفي عمر الإمام علي: "وكان لعلي حين قتل ثلاث وستون سنة، وقيل سبع وخمسون، وقيل ثمان وخمسون".

وحكوا عن بلقيس أموراً عجيبة، وقد نقلها إبن الأثير في كامله، ثم علق عليها بقوله:

"وبالغ آخرون مبالغة تدلّ على سخف عقولهم وجهلهم، قالوا: كان لها إثنا عشر ألف قَيْل، تحت يد كلّ قيل مائة ألف مقاتل. مع كل مقاتل سبعون ألف جيش. في كل جيش سبعون ألف مبارز. ليس فيهم إلا أبناء خمس وعشرين سنة. وما أظنّ الساعة راوي هذا الكذب الفاحش عرف الحساب حتى يعلم مقدار جهله. ولو عرف مبلغ العدد لأقصر عن إقدامه على هذا القول السخيف. فإن أهل الأرض لا يبلغون جميعهم شبابهم وشيوخهم وصبيانهم ونساؤهم هذا العدد. فيكف أن يكونوا أبناء خمس وعشرين سنة. فيا ليت شعري كم يكون غيرهم ممن ليس من أسنانهم(أعمارهم). وكم تكون الرعيّة وارباب الحرف والفلاحة وغير ذلك.. وقالوا غير ذلك. وذكروا من أمر عرشها ما يناسب كثرة جيشها، فلا نطول بذكره. وقد تواطأوا على الكذب والتلاعب بعقول الجهّال، واستهانوا بما يلحقهم من استجهال العقلاء لهم. وإنما ذكرنا هذا على قبحه ليقف بعض من كان يصدق به عليه فينتهي إلى الحقّ ".

وأشار إبن خلدون في تاريخه إلى أن النقل دون أعمال العقل كان السبب وراء وقوع المغالط في مثل تلك الاخبار، قال:

"وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع، لإعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً. لم يعرضوها على أصولها. ولا

قاسوها بأشباهها. ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار. فضلوا عن الحق. وتاهوا في بيداء الوهم والغلط".

وإذا كنا نلوم القدماء على أنهم لم يتحروا الدقة فيما نقلوه، فإن اللوم الأكبر يقع على من يردده الآن دون امعان للفكر؛ بل يتعين علينا فحصه، ومقارنته بالاصول السابقة وبالمعطيات اللاحقة؛ لكي ننقذ حقائق كثيرة لا تزال غارقة في بحار الجهل.

قامت على أرض مصر واحدة من أعظم حضارات العالم، إن لم تكن أعظمها جميعاً. ففيها توفرت العناصر الرئيسية لقيام الحضارة، وهي: الإنسان، والبيئة، والعقيدة الدينية، والإستقرار السياسي. وقد تفاعلت هذه العوامل معاً وأنتجت لنا ثلث آثار العالم في مصر وحدها، كما أمدت الشرق والغرب بالمبادئ الأولية للعلوم الطبيعية والإنسانية.

فالإنسان المصري القديم: المزارع والمهندس والطبيب والحكيم والعالم والمشرع والجندي، عملوا معاً على إنتاج وصياغة تلك المعالم الحضارية المذهلة. فعملت تعاليم الحكمة والقيم الإنسانية التي صاغها المشرعون الأوائل مثل كاجمني وبتاح حتب وآني وغيرهم، على تكوين مجتمع متناغم يؤدي كل فرد فيه دوره تحت ظل الحرية والعدالة والأمن والأمان. مما أتاح له أن يبدع ويتقدم في كافة مجالات الحياة: الإجتماعية والزراعية والفلكية والهندسية والطبية.

وفي أيام الفراعنة، لم تكن المعابد تقتصر على أداء الشعائر الدينية وحسب؛ بل كانت تؤدي دور الجامعة حيث توجد بها المعارف والعلوم والحكمة، حتى قيل عن موسى النبي أنه تهذب بكل حكمة المصريين(أع7)، فقد تلقى العلوم في معبد الشمس الذي كان بمثابة جامعة للعلوم الفلكية والطبيعية والإنسانية انذاك. وفي رحاب تلك المعابد الجامعة أصقل عدد من حكماء الأغريق علومهم. كما لا يستبعد أن يكونوا قد تركوا خبراتهم المعرفية لدى أساتذة مصريين كنوع من التبادل الثقافي بين الشعوب. وتدل براعة القدماء في العمارة والفلك والتحنيط على الرقي والتقدم المعرفي الذي بلغوه، وتفوقوا به على غيرهم من الشعوب.

وحافظ المحتل البطلمي على القواعد العامة للمجتمع المصري القديم. ولم يتعرض لحريته الدينية والفكرية، بل إنه ساهم في إقامة المعابد والصروح المعمارية، وشجع العلم والمعرفة عن طريق إقامة دار الحكمة والمكتبات بالإسكندية والأقاليم. والتي إستمرت في أداء دورها طيلة حكم البطالة(332–32ق.م)، والى آخر الحقبة الرومانية(32 ق.م– 639م).

وفي هذا العصر، سحبت الإسكندرية بساط العلم والمعرفة من جميع أنحاء العالم بمكتبتها ودار حكمتها التي نالت شهرة واسعة على مستوى العالم، فكانت أرقى المراكز الثقافية والعلمية في زمانها، كما كانت ملتقى علماء العالم وحكمائه. وكان من علمائها اقليدس وأرشميدس، وايراتوستينيس، وبطلميوس صاحب المجسطي. ومن علمائها المتأخرين تترددت أسماء امونيوس بن هرمياس، وسنبلقيوس، واسقليبيوس، وثيؤدوتوس، ويوحنا الآبامي، وسرجيوس، وايتيوس الآمدي، وبولس الأجانيطي.

وإشار إبن النديم في(الفهرست)الى عدد من الأطباء السكندريين مثل اصطفن(استيفان)، وجاسيوس، وانقبلاوس، ومارنيوس. وقال إبن القفطي أن العلماء السكندريين "هم الذين رتبوا بالإسكندرية دار العلم، ومجلس الدرس الطبي. وكانوا يقرأون كتب جالينوس ويرتبونها على الشكل الذي نقرأ اليوم عليه. وعملوا لها تفاسير وجوامع تختصر معانيها ويسهل على القارئ حفظها وحملها في الأسفار. فأولهم على ما رتبه: اسحق بن حنين، واصطفن الإسكندراني ثم جاسيوس، وانقيلاوس، ومارنيوس فهؤلاء الأربعة عمدة الاطباء الإسكندرانيين. وهم الذين عملوا الجوامع والتفاسير".

وقد نُقلت علوم هؤلاء–وغيرهم–الى العربية في العصر العباسي. وكان لعلومهم بالغ الأثر على من تتلمذوا عليها من الناطقين بالعربية ممن ذاعت شهرتهم في كتب التاريخ مثل الفارابي وإبن سينا وغيرهما.

وذكر إبن اياس عن الكندي أسماء بعض العلماء الذين عاشوا بمصر في العصور المتأخرة، سواء من ولدوا بها، أو من جاءوا ليتعلموا في رحابها، فذكر انمايتمون، واراطس، وافلوطينوس، وانذربه، وقليور، وبايلينيوس، وبطليموس، وفيثاغورس، وسقراط، وافلاطون، وأرسطو، وجالينوس، والينوس، وديسقوريدس، وبقراط، وقس إبن ساعدة حكيم العرب.

وتعتبر العقيدة الدينية من أسباب قيام وهدم الحضارات، فلولا عقيدة البعث المشروط بحفظ الجسد، ما كان المصريون قد بنوا قبورهم الهرمية، وما كانوا قد نحتوا حبور ملوكهم في الصخور السفلية، كما هو الحال في وادي الملوك والملكات. ولا كان البابليون قد شيدوا الإيساجيل والزاقورات، ولا كان الهنود قد بنوا صروح الماهتمات. ولولا العقيدة الدينية ما رأينا المعابد والمساجد والكنائس والكاتدرائيات، التي منها العتيق ومنها المحدثات.

وأمدته البيئة بالعناصر اللآزمة لبناء الصرح الحضاري؛ النيل قدم له الإستقرار والرخاء. ولم يكن له أن يقيم حضارة بغير استقرار، على عكس البدوي الذي تشكل البيئة الصحراوية القفرة حياته، والتي تقوم على الرعي والترحال والغزو والإغارة.

وزودته الطبيعة بالصخور الكلسية والجيرية والجرانيتية والبازلتية وغيرها. وقد وظفها المهندسون والعمال في بناء تلك الصروح المعمارية كما هو الحال في هرم خوفو الذي بني قبل نحو أربعة الآف وخمس مئة عام. وبلغ إرتفاعه عند الإنشاء

146 متراً، وطول قاعدته 230 متراً. ومثل معابد الكرنك حيث توجد قاعة الأعمدة الكبرى التي أنشأها المصريون في عهد الملك سيتي الأول وإبنه رمسيس الثاني. وكانت–ولا تزال–أضحم قاعة أعمدة عرفها العالم القديم، حيث ترتفع بعض أساطينها الى عشرين متراً. ويبلغ قطر الأسطون الواحد ثلاثة أمتار ونصف. بينما يبلغ قطر تاج العمود خمسة امتار. ناهيك عما يفترش جدران المعبد من نقوش باهرة، وما يتقدم قاعاته من صروح هائلة، ومسلات فارعة.

كما ساعد جفاف المناخ وانعدام الرطوبة على حفظ الأبنية المشيدة من الأحجار الجيرية الى وقتنا هذا.

وقد أثرت الهندسة المعمارية المصرية في طُرُز العمارة البطلمية والرومانية، ومنهما إنتقلت الى معظم بلاد الغرب؛ فمنها–على سبيل المثال–الأعمدة المضلعة ذات الشكل البارز (fasiculés)والشكل الغائر (cannulés)، فهي لا تزال تتصدر واجهات كثير من المباني القديمة والحديثة، ولا تكاد تخلوا عاصمة من عواصم العالم، ولا مدينة من مدنه، من مباني ذات أعمدة من هذا الطراز المصري الأصل. والذي يرجع الفضل الأول في إنتاجه الى المهندس العبقري إمحوتب، وذلك قبل أكثر من أربعة الآف وستمائة عام خلون. ولا تزال المجموعة الهرمية التي شيدها للملك زوسر قائمة في منطقة سقارة حيث يرقد الهرم المدرج وباقى اجزاء المجموعة. ولا تزال الاعمدة المضلعة من النوعين الغائر والبارز تزين أعمدة ممر الدخول للمجموعة الزوسرية، ومقاصير قاعة الـ (حِبْ–سِدْ) الى وقتنا هذا. وقد انتقلت في زمن البطالمة الى بلاد اليونان، ومنها الى المباني الرومانية، ومنهما

الى العمارة الأوربية برمتها. ومن اوربا الى قارات العالم بما فيه الأمريكتين وغيرهما من المستعمرات الأوربية.

وما يقال عن العمارة يقال عن بقية العلوم الطبية والفلسفية والفلكية التي أخذها الاغريق من مستودع العلم والحكمة في مصر الفرعونية. تلك الحقبة التي دمرنا حضارتها وشوهنا تاريخها تارة بالتكفير وأُخرى بالتحقير.

وبعد زوال الحقبة الفرعونية لم يحل المحتل الاغريقي دون اقامة المعابد المصرية حيث ترك الفن والعمارة الإغريقية أثرا ضئيلاً بها نراه في الواجهة المثلثة لبعض المباني، وفي الاعمدة ذات التيجان الكورنثية. والتي انتقلت الى عمارة الكنائس في الحقبة المسيحية الرومانية. وفيها تمت بعض الاضافات مثل القبة والمنارة. وهذه بدورها انتقلت الى عمارة المساجد بعد الغزو العربي لمصر، فاحتوت على القبة، والمنارة(المئذنة)، والشرقية(المحراب) والإنبل(المنبر)، والاعمدة، والارائك. الى جانب الزخارف النباتية والهندسية. والمشكاوات والمشغولات الخشبية قبطية الطراز، والتي اطلق عليها الأوربيون إسم ارابيسك، على غير الحقيقة. كما استخدمت المنشآت والمباني القديمة من اهرامات ومعابد ومقابر وكنائس كمحاجر لاقامة العمائر الجديدة للوافدين الجدد، فعلى سبيل المثال استعملت اطلال منف في بناء مدينة الفسطاط وعمائرها. والى جانب الشواهد التاريخية فلا تزال توجد شواهد معمارية تدل على ذلك. ولا يزال جامع أبو الحجاج قائماً داخل معبد الأقصر. وقد شيد فوق كنيسة قديمة. وفي العصر الروماني، استعمل المسيحيون الجزء الملاصق لقاعة القرابين في نفس المعبد ككنيسة بعد تغطية نقوشه برسومات مسيحية.

ونشاهد طغراءً فرعونياً على عتبة من الجرانيت الوردي بعتبة مسجد فرج إبن برقوق بقرافة المماليك. ونرى نقشاً فرعونياً آخر على عتبة قبة الصالح نجم الدين ايوب بشارع المعز. وأما الاعمدة الجرانيتية والرخامية ذات التيجان الكورنثية فتعج بها الكنائس والمساجد مثل كنيسة القديسة بربارة، وكنيسة ابي سرجة، والجامع الازهر، وجامع الناصر محمد إبن قلاوون ذو الارائك بالقلعة، وجامعه ومدرسته ذات الايوانات بشارع المعز. وغيرهم الكثير...

قال إبن عبد الحكم ان عمراً لما أبطأ في ارسال الخراج، بعث اليه الخليفة عمر ابن الخطاب يستبطئه. وجرت بينهما رسائل وكتابات. وفي احداها قال عمرو: "أما بعد فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين في الذي استبطأني فيه من الخراج...وذكرتَ أن النهرَ يُخرج الدُّرَ، فحلبتُها حلباً قطع ذلك دَرَّها"[1].

ولما تمكن عمرو من حكم مصر، يقول المقريزي أنه فرض "على جميع من بها من القبط دينارين دينارين، فجيبت أول عام عشرة الآف ألف–أي عشرة ملايين– دينار. قيل جيبت ستة عشر ألف ألف دينار. وضُربت الجزية على كل علج[2] من علوج مصر الذين أُقروا لعمارة الأرض أربعة دنانير في كل سنة سوى خراج الأرض"[3]. وهنا يصف المقريزي المصريين بالعلوج، مع أنه كان ينفق من مال جزيتهم ويأكل من خراج أرضهم ومن نتاج عرقهم، ويتداوى بطبهم ويشرب من نيلهم! فمن يكون العلج إذن؟! الوطني العامل أم الوافد المتنطع ؟!!!

---

1) عبد الرحمن ابن عبد الحكم، فتوح مصر واخبارها، صـ 110.

2) قد سمعت هذا اللفظ الذي لا أعرف معناه، أول مرة على شاشة التلفيزيون من الرئيس العراقي صدام حسين عندما نعت به جنود الغزو الأمريكي. ولا شك أنه كان محقاً في أن ينعت جيش إحتل بلاده وإنتهك سيادتها بهذا النعت. مع أن الاحتلال الامريكي للعراق كان احتلالاً مؤقتاً يهدف الى إنقاذ الشعب العراقي من النظام البعثي الدكتاتوري؛ ولكنه–مع الأسف الشديد– أدخل البلاد في غياهب الفوضى والتناحر الطائفي الذي أفضى في النهاية الى تدمير العراق بيد أبنائه.

3) المقريزي، اغاثة الامة بكشف الغمة، صـ 138.

وعندما كلف الخليفة عثمان بن عفان أخاه في الرضاعة عبد الله بن سعد، بتولي خراج مصر، عارض عمرو بن العاص ذلك، وقال: "أنا إذن كماسك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها". فعزله عثمان، وجمع في يدي إبن سعد الخراج والإمارة.

ولما تولى إبن سعد فإنه رفع مقدار الجزية التي كان يجبيها، فبلغ أربعة عشر مليون دينار؛ كما يروي إبن عبد الحكم عن الليث:

"جباها عبد الله بن سعد حين استعمله عليها عثمان أربعة عشر ألف ألف؛ فقال عثمان لعمرو بعدما عزله عن مصر: يا أبا عبد الله، درت اللقحة(الناقة) بأكثر من درها الأول؛ قال عمرو: أضررتم بولدها".

وأضاف إبن اياس: "ان هذه الزيادة التي أخذها عبد الله بن ابي السرح انما هي على الجماجم. فانه أخذ على كل رأس دينارا خارجا عن الخراج فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل. وكانت هذه أول شدة لأهل مصر في مبتدأ الإسلام "[1].

وفي الحقيقة لم تكن هذه أول شدة، بل سبقتها شدائد كثيرة، منها تكليف المصريين بحفر قناة وصلت النيل بالبحر الأحمر، لنقل خيرات مصر الى حاضرة الخلافة؛ وقد تكبدوا في حفرها خسائر فادحة. وإنتهبت خيرات ارضهم لكي تذهب الى الحجاز عن طريق تلك القناة، أحد الشواهد على ظلم الاحتلال العربي.

وكانت تُصرف من در اللقحة مرتبات للعرب الوافدين، من خلال ديوان الأُعطيات. كما كان يعد لهم الطعام كل يوم بيومه، فكان للأمير عبد العزيز بن

1) إبن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ1، صـ 113.

مروان "في كل ليلة مائة حَلَّة كبيرة تُحمَل على عَجَل، وفيها الطعام، تُفَرَّق على قبائل العرب التي حوله".

وأشار إبن اياس كذلك الى ما كانت تدره من ثروات على الولاة وغيرهم، قال:"مرض الامير عمرو بن العاص وسلسل في المرض؛ فلما أشرف على الموت، أحضر ما كان جمعه من أموال القبط لما فتح مصر، وقال لولده عبد الله .. إذا أنا مُت فأردد هذه الأموال التي جمعتها الى أصحابها. فلما مات الأمير عمرو سمع بها معاوية فأرسل أخذها وقال: نحن أحق بهذه الأموال لدفع العدو. فأخذها وأدخلها في بيت المال. قيل لعبد الله بن عمرو: ما كان قدر ذلك المال؟ قال: كان سبعين جراباً من جلد ثور كاملة".

وذات مرة بعث الليث بن سعد الف دينار الى الإمام مالك، فغضب الرشيد، وارسل يقول له: "بعثت أنا الى الإمام مالك خمسمائة دينار، فتبعث أنت الف دينار، وانت واحد من رعيتي! فارسل الليث يقول: يا امير المؤمنين ان لي في كل يوم مُتَحَصَّل غلالي ومتجري الف دينار فإستحيت أن اقابل مثل هذا الرجل باقل من متحصل يوم واحد".

وذات يوم بلغ الرشيد أن والى مصر قال: أنا احسن من هارون الرشيد، فقال الرشيد: والله لأولين على مصر اوحش الناس شكلاً، فاستدعى عمر بن مهران وولاه على مصر نيابة عن جعفر". وقيل عن إبن مهران هذا أنه "كان شنيع الخلقة زري الشكل احول العينين".

ونحو سنة 1461م، لم يجد السلطان المملوكي خُشقدم في أهل مصر من يصلح لتولي منصب الوزارة سوى جزار يدعى شمس الدين البباي. وصفه إبن إياس بأنه

"كان ظالماً عسوفاً...عامي الطباع، خالياً من الفضيلة، لا يقرأ ولا يكتب". وعلق إبن تغري بردي على توليه لذلك المنصب بقوله: "كانت ولايته لهذه الوظيفة من أقبح ما وقع في الدولة التركية(يقصد المملوكية) بالديار المصرية"[1].

ولم يقتصر تولى أمرها على "شنيع الخلقة"، و"عامي الطباع"، فقد ولاها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك لـ قرة إبن شريك الذي قال عنه إبن اياس: "كان قرة ظالماً غشوماً جهولاً؛ قيل كان يصعد بالخمر والملاهي على سطح جامع عمرو بن العاص". وقال عنه إبن تغري بردي: "كان سيىء التدبير خبيثًا ظالماً غشوماً فاسقاً منهمكاً..وكان أشر خلق الله .. وكان عمر بن عبد العزيز يعتب على الوليد لتوليته مصر "[2].

ولهذا يعتبر قرة من بواعث فخرنا، ومن العلامات المضيئة في تاريخنا، حتى أن أولي الأمر أطلقوا إسمه على أحد شوارع الجيزة، مكافأة له على ما فعله بأجدادهم المصريين !

وفي ولاية عبد الملك بن رفاعة، كتب سليمان بن عبد الملك الى عامل الخراج أسامة بن زيد التنوخي يطالبه بالتشدد في حلب البقرة، وإن أدى الأمر الى هلاكها، قال: "احلب الدر حتى ينقطع. وأحلب الدم حتى ينصرم".

وكان سليمان معجباً به راضياً عنه كل الرضى حتى أنه كان يمتدحه في غيبته كما في حضرته. وذات يوم قال لابن عمه عمر بن عبد العزيز:

---

1) إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ16، صـ 278.

2) إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ1، صـ 217.

"هذا أسامة لا يرتشي ديناراً ولا درهماً، فقال له عمر: أنا أدلك على من هو شر من أسامة، ولا يرتشي دينارًا ولا درهماً ، قال سليمان: ومن هو ؟، قال عمر: عدو الله إبليس"[1].

فغضب سليمان لأن عمر بن عبد العزيز، الذي إشتهر بالعدل، كان يعلم بحقيقة أُسامة التنوخي، ولم يستحي من قول الحق.

وفي ولاية عيسى بن منصور على مصر، في خلافة المأمون، ثار أولاد اللقحة من جراء انقطاع الضر وإنصرام الدم؛ وعجز الوالي عن إخماد ثورة المظلومين. فجاء المأمون بنفسه على رأس جيش كبير فوبخ الوالي، وقال له: "هذا كله بسوء تدبيرك وجورك على أهل القرى؛ وقد حملت الناس ما لا يطيقون".

ولكنه، وبدلاً من أن يرفع الظلم عن الناس، إلا أنه كلف الأفشين باسكات صوت المقهورين بالسيف فقتل الثائرين، وسبى نساءهم وزراريهم كما يقول أبو المحاسن عن الأفشين أنه "حارب أهلها وقتل منهم جماعة كثيرة؛ واسر النساء والصبيان واحضرهم بين يدي المامون فأمر بقتل الرجال وبيع النساء والصبيان. وكان اكثرهم من القبط والحوف". ولم يستنكف المؤرخ الكبير أن يصف الأفشين الذي نكل بالمصريين، بأنه كان بطلا شجاعا.

ورجع المامون الى مقره (وجيبه مليان) من المصادرات، ومن ثمن النساء والصبيان، وقد بلغت قيمتها أربعة ملايين دينار حسبما روي المؤرخون: "دخل عليه في هذه السرحة نحو أربعة الآف الف دينار غير الهدايا والتحف".

---

1) إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، جـ، صـ 231.

وقال إبن اياس عن عامل الخراج أحمد إبن المدبر أنه: "كان من شياطين العمال، أحدث في أيامه أنواعاً من وجوه الظلم لم تكن بمصر منها: أنه حجر على الأطرون والملح، وكانا مباحين للناس؛ ومنها أنه قرر على الكلأ الذي ترعاه البهائم مالاً، وسماه المراعي؛ وقرر على مصايد الأسماك مالاً، وسماه المصايد. وأحدث من هذه المظالم أشياء كثيرة...فلما جرى ذلك رحل غالب أهلها من الظلم وإنحط خراجها الى الغاية..."[1].

هذه أم الدنيا، مهد العلوم والحضارات، ومصدر الخيرات، لم تكن عند المحتل العربي أكثر من (لقحة)، إذا ما انقطع درها، إستحل ذبحها وأكلها، هي وأولادها.

وأعتقد أنه قد آن الأوان لكي نروي التاريخ الحقيقي، ونتوقف عن تزييفه وبتر فصوله. وأن نسمى الأشياء بحقيقة أسمائها، وأن نستعيد هويتنا المصرية، بدلاً من التمسح في هوية غيرنا– مع إحترامنا الكامل لكل شعوب الأرض.

وأن نواجه أنفسنا، ونقرأ التاريخ من مصادره الأولى، وأن نحرر عقولنا من الخضوع الأعمى للموروث وأن نقرأه بحيادية، وفي ضوء العقل والضمير الإنساني، بدلاً من إضاعة الوقت والجهد في الحديث عن توافه الأمور، وخصوصيات الناس من المعلن والمستور.

---

1) إبن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ1، صـ 159.

يتهم البعضُ الغربَ بسرقة وتدمير آثارنا. فهل حقاً سرق الغربيون آثارنا، ودمروها ؟ وقبل أن أجيب عن هذا السؤال دعونا نُقلب معاً صفحات الماضي ونلقي إطلالة على الحاضر.

في العصر الفرعوني، كانت المقابر والمقاصير والمعابد تتعرض للتدمير الجزئي من قبل الغزاة، أو من قبل المصريين أنفسهم أثناء الثورات. وكان بعض الملوك والنبلاء يستعملون أنقاض تلك المباني في إقامة مقابر ومعابد أخرى. وأثناء الاحتلال اليوناني الروماني شيد المصريون العديد من المعابد مثل فيلة وكوم امبو وادفو وسيرابيوم الاسكندرية وغير ذلك.

وعندما دخلت المسيحية الى البلاد، وهي ديانة توحيدية ترفض التعبد للالهة الوثنية، وتدعوا الى العفة والقداسة، لذلك لقى المسيحيون الاوائل صنوفا من الاضطهادات، وكانوا يصلون في البيوت وداخل المعابد والمقابر المهجورة. ولما اصبحت المسيحية ديانة رسمية في البلاد ايام قسطنطين؛ اخذوا يبنون الكنائس في حرية حتى قال ابن كثير في (البداية والنهاية) "بُنى في أيام قسطنطين بالشام وغيرها في المدائن والقرى أزيد من اثنتي عشر ألف كنيسة. واعتنى الملك ببناء بيت لحم يعني على مكان مولد المسيح وبنت أمه هيلانة قمامة(قيامة) بيت المقدس". وقال ايضا "إن أبرهة بني القليس بصنعاء كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض وكتب إلى النجاشي إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها لملك كان قبلك".

وقد محيت هذه الكنيسة وكل كنائس شبه الجزيرة العربية، كما لم يبق من الاثنتي عشر الف كنيسة الا النذر اليسر بعد الاحتلال العربي.

وعندما إحتل العرب مصر، إتخذوا من الأبنية القديمة، وبخاصة منطقتي منف والجيزة، كمحاجر لإقامة مدينة الفسطاط، والمدن التي أُقيمت إلى جوارها في العهد الأموي والعباسي والفاطمي، وهي العسكر والقطائع والقاهرة. والى جانب الشواهد التاريخية فلا تزال توجد شواهد معمارية تدل على ذلك. وقد أشرت الى بعضها فيما مر.

ويذكر المؤرخون أن ولاة مصر كانوا يفتشون عن كنوز أجدادنا المصريين. وفي سبيل ذلك يهدمون المباني ويحطمون التماثيل التي سلمت من أيدي العابثين اثناء الاحتلال الهكسوسي والاشوري والبابلي والفارسي. ولبثت محفوظة لمئات السنين. فيذكر محمد إبن إياس أنه قيل لعمرو أن كنوز الإسكندر مخبأة في منتصف منار الإسكندرية "فأمر عمرو بهدم المنار. وقلع المرآة التي كانت به. فلما هدموه إلى مقدار ثلثه، فلم يجدوا فيه شيئاً من المال"[1]. وعجزوا في إعادة المرآة كما كانت. فلم يعد الفنار يؤدي وظيفته التي بنى لأجلها.

وروي عن أحمد بن طولون أنه لما عُيِّر بأنه أنفق على بناء الجامع من أموال الظلم، فإنه خطب في الناس وقال لهم أنه بناه من كنز ظفر به عند الاهرام.

وقال ابن إياس أيضاً أن المأمون بعدما قتل عشرات الالوف من المصريين الثائرين على الجور والظلم، وباع اولادهم ونساءهم، فإنه سعى في هدم الهرم الأكبر بحثاً عن الكنوز، وبالكاد تمكن جنوده من إحداث ثلمة في الناحية الشمالية

1) إبن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ1، صـ. .106، 107.

للهرم، ومنها وصلوا الى حجرة دفن الملك فنهبوها. وقيل أنه عثر بداخله على ذهب وزبرجد يعادل ما أنفق على عملية الهدم. فتعجب وقال: "كان هؤلاء القوم بمنزلة لا ندركها نحن ولا أمثالنا"[1].–وصدق في قوله هذا.

وذكر عبد اللطيف البغدادي عن العزيز عثمان ابن صلاح الدين الايوبي أنه "سول له جهلَةُ أصحابه أن يهدم هذه الأهرام فبدأ بالصغير الأحمر(هرم منكاو رع).. فأخرج إليه النقابين والحجارين وجماعة من عظماء دولته وأمراء مملكته وأمرهم بهدمه؛ ووكلهم بخرابه. فخيموا عنده. وحشروا عليه الرجال والصناع. ووفروا لهم النفقات. وأقاموا نحو ثمانية أشهر بخيلهم ورجالهم يهدمون كل يوم، بعد بذل الجهد واستفراغ الوسع، الحجر والحجرين.. فلما نفذت نفقاتهم، ووهنت عظامهم وخارت قواهم، كفوا محسورين مذمومين. لم ينالوا بغية، ولا بلغوا غاية؛ بل كانت غايتهم أن شوهوا الهرم؛ وأبانوا عن عجز وفشل"[2].

وأشار البغدادي أيضاً الى دأب الغوغاء والعربان على التعدي على آثار القدماء، قال: "وأما في زمننا هذا فتُرك الناس سدى.. وكان جل إنصراف ظنونهم الى معشوقهم، وأجل الأشياء في قلوبهم وهو الدينار والدرهم.. وكل شئ مطمور في جبل أنه يفضي الى كنز؛ وكل صنم عظيم أنه حاصل لمال تحت قدميه.. فصاروا يعملون الحيلة في تخريبه، ويبالغون في تهديمه، ويفسدون صور الأصنام إفساد من يرجوا عندها المال، ويخاف منها التلف. وينقبون الأحجار نقب من لا يتمارى أنها صناديقٌ مقفلةٌ على ذخائر..ومما يُقَّوي أطماعهم ويديم إصرارهم أنهم يجدون

1) إبن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ1، صـ151..

2) عبد اللطيف البغدادي، الافادة والإعتبار، صـ94، 95& بدائع الزهور، جـ1، صـ 251.

نواويس تحت الأرض فسيحة الأرجاء، محكمة البناء. وفيها من موتى القدماء الجم الغفير، والعدد الكثير، قد لُفوا بأكفان من ثياب القنب(الكتان)، لعله يكون على الميت منها زهاء ألف ذراع. وقد كفن كل عضو على إنفراد كاليد والرجل والأصبع في قطع دقاق...ومن كان يتتبع هذه النواويس من الأعراب وأهل الريف وغيرهم، يأخذ هذه الأكفان. فما وَجد فيه تماسكاً، إتخذه ثياباً أو باعه للوراقين يعملون منه ورق العطارين. ويوجد بعض موتاهم في توابيت من خشب الجميز ثخين. ويجد بعضهم في نواويس من حجارة، إما رخام، وإما صوان"[(1)].

وتحدث المؤرخون عن أعداد هائلة من الكنائس والأديرة تم هدمها من قبل الغوغاء وبعض الحكام. واستعملوا أعمدتها وحجارتها في بناء الدور والجسور والمساجد والقصور. ومن ذلك ما يذكره ابن اياس من أن الفاطميين لما احتلوا مصر، وشرع جوهر القائد في بناء القصر الشرقي لمولاه المُعز أنه "أدخل فيه دير العظام.. ونقل جوهر القائد العظام التي كانت في الدير المذكور والرمم إلى دير في الخندق فدفنها. لأنه يقال: إنها عظام جماعة من الحواريين. وبنى مكانها مسجدًا"[(2)]. ويذكر المقريزي أن دير الخندق كان قريباً من دير العظام. وقال أنه هدم في أيام قلاوون(نوفمبر 1288م). ثم تم تجديده بعد ذلك.

ونكل الحاكم بأمر الله–حفيد المعز– بالمسيحيين. "وهدم الكنائس التي بخط راشدة ظاهر مدينة مصر، وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة. وأباح ما فيها للناس. فإنتهبوا منها ما يجل وصفه. وهدم دير القصير، وأنهب العامة ما

---

1) عبد اللطيف البغدادي، الافادة والاعتبار، صـ107، 108.

2) إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ4، صـ 34.

فيه...وأخذ في هدم الكنائس كلها؛ وأباح ما فيها، وما هو مُحبس عليها للناس، نهباً وإقطاعاً. فهُدمت بأسرها. ونَهب جميع أمتعتها؛ وأقطع أحباسها(أوقافها) وبني في مواضعها المساجد. وأذن بالصلاة في كنيسة شنودة بمصر..وكتب إلى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات. فعم الهدم فيها من سنة ثلاث وأربعمائة(1012م) حتى ذكر من يُوثق به في ذلك أن الذي هُدم إلى آخر سنة خمس وأربعمائة(1015م) بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التي بناها الروم نيف وثلاثون ألف بيعة. ونهب ما فيها من الآت الذهب والفضة. وقبض على أوقافها. وكانت أوقافا جليلة على مبان عجيبة..وفي هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى"[1].

وإمتدت يد العوث والتخريب الى الكنائس والأديرة في ربوع الإمبراطورية الإسلامية، ومحيت الكنائس تماماً من بعض البلاد مثل شبه الجزيرة العربية وكل بلاد المغرب العربي. ومن أمثلة ما تم الاستيلاء عليه أثناء إحتلال المسلمين للشام، كنيسة مار يوحنا. يقول ابن كثير في البداية والنهاية نقلا عن ابن عساكر "أخذ الصحابة نصف الكنيسة العظمى التى كانت بدمشق وتعرف بكنيسة يوحنا، فاتخذوا الجانب الشرقي منها مسجداً، وأبقوا لهم النصف الغربي كنيسة". ثم استولى الوليد بن عبد الملك على بقية الكنيسة حيث "أخذ فأساً بيده فضرب بها في أعلى حجر فألقاه فتبادر الأمراء إلى الهدم. وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات. وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون. وكانوا قد اجتمعوا هنالك. فأمر الوليد أمير الشرطة، وهو أبو نائل رياح الغساني أن يضربهم حتى يذهبوا من هنالك".

---

1) المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ3، صـ 277، 278.

ويقول ابن كثير أيضاً أنه في سنة 191هـ(807م) "أمر الرشيد بهدم الكنائس والديور. وألزم أهل الذمة بتمييز لباسهم وهيآتهم في بغداد وغيرها من البلاد".

وذكر المقريزي في(السلوك لمعرفة دولة الملوك) أن الناصر حسن "رسم للأمير صرغتمش بأن يهدم الديورة والكنائس الكبار. وكان يومئذ بشبرا القاهرة كنيسة كبيرة على شاطئ النيل..فتوجه الأمير صرغتمش إلى شبرا وهدم الكنيسة"[1]،

ولم يك أمر الهدم يقتصر على أوآمر الحكام وحسب، بل كانت الغوغاء تتسابق عليه لعله يزيد من ميزان حسناتهم. وكانوا يترقبون إشارة البدء من أي جهة تجئ. ومنه ما جرى في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون حيث يقول المقريزي في (المواعظ الاعتبار): "ثم لما كان يوم الجمعة تاسع شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، هدمت كنائس أرض مصر في ساعة واحدة "[2]. ومنها كنيسة باسم الزهري قال بشأنها:

"فتجمع عدة من غوغاء العامة بغير مرسوم السلطان وقالوا بصوت عال مرتفع الله أكبر، ووضعوا أيديهم بالمساحج ونحوها في كنيسة الزهري وهدموها حتى بقيت كوماً، وقتلوا من كان فيها من النصارى".

وهدموا ديرا للرهبان، وآخر للبنات. "وسبوا البنات وكن زيادة على ستين بنتاً، وأخذوا ما عليهن من الثياب. ونهبوا سائر ما ظفروا به. وحرقوا وهدموا تلك الكنائس كلها..واتفق أيضاً بالجامع الأزهر أن الناس لما إجتمعوا في هذا اليوم لصلاة الجمعة،

---

1) إبن اياس، بدائع الزهور، جـ1، صـ . 565 –567. & الأسقف ايسيذوروس، الخريدة النفيسة، جـ2، صـ 425.

2) تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ 2، صـ 499.

أُخذ شخص من الفقراء مثل الرعدة، ثم قام بعدما أذن قبل أن يخرج الخطيب وقال: إهدموا كنائس الطغيان والكفرة، نعم، الله أكبر.. وتواتر الخبر من الوجه القبلي والوجه البحري بكثرة ما هدم في هذا اليوم وقت صلاة الجمعة وما بعدها من الكنائس والأديرة، في جميع إقليم مصر كله، ما بين قوص والإسكندرية ودمياط "[1].

وفي أُكتوبر 1436، أفتى الشيخ ناصر الدين الطنباوي بهدم دير المغطس عند بحيرة البرلس. "وأخرج محضراً يتضمن أن النصارى يحجون إليه في كل سنة. ويجتمع عنده من النصارى والمسلمين للفرجة والتجارة ما لا يحصى حتى صاروا يضاهون بذلك أهل الموقف بعرفة. وأفتى العلماء بهدم الدير وإزالة تلك العادة. ففوض السلطان الأمر للقاضي المالكي، فلم يتفق أنه يقوم بذلك حق القيام، حتى كان ذلك في السنة المقبلة فُهدم ولله الحمد"[2]. وحدث ذلك في مارس 1438م، حين توجه الأمير جكم إلى الوجه البحري، "فهدم دير المغطس. وهو دير روماني، من قبل الإسلام. ولكنهم يبالغون في تعظيمه. ويخصصون له يوماً معيناً كالعيد يجتمع فيه من جميع أقطار الإقليم، مشاة وركاباً، يتشبهون بالحاج"[3].

واستمرت أعمال الهدم والتخريب حتى اقطتع محمد على باشا القطر المصري من جسد الامبراطورية العثمانية، في سنة 1805م، حيث هدأت أعمال الهدم والتخريب. وعمل هو وخلفاؤه على النهوض بالبلاد بارسال البعثات التعليمية،

1) تقي الدين المقريزي، المواعظ والاعتبار، جـ 2، صـ 512– 513.

2) إبن حجر العسقلاني، انباء الغمر بأنباء العمر، جـ4، صـ 39، 40 & إبن اياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ2، صـ 175.

3) إبن حجر العسقلاني، انباء الغمر بأنباء العمر، جـ4، صـ 70.

واستقدام البعثات العلمية في كافة المجالات، ومنها مجال الآثار. وبدأ اثاريو الغرب في تحرير واعادة بناء ما بقي مطمورا تحت الرمال من اثار القدماء.

وكان لتلك البعثات الفضل الأول في تعريفنا بتاريخ اجدادنا، وفي بعث اثارهم التي هدمها الجهلاء والطامعون بحثا عن التحف والمجوهرات، ولاستغلال حجارتها في بناء البيوت والجسور والسدود. فنصب الأوربيون هديدها، ورموا اطلالها، وانقذوا غريقها؛ واعلمونا بقيمتها المعمارية والهندسية والفنية والتاريخية والإجتماعية، حتى صارت قيمة الأحجار تقدر بما يفوق الذهب والمال.

وبفضل جهود شامبليون وزميله توماس يونج تم فك شفرة لغة اجدادنا التي أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بقطع لسان من يتكلم بها. وبدأنا نقرأ ونفهم لغة القدماء، ونعرف طرق معاشهم ونمط حياتهم. وقد ساعده على ذلك حجر رشيد، الذي لو لم يقع في يد علماء الحملة، لانتهى به الأمر الى مصير مجهول مثل ملايين الأحجار التي حشرت في الجدران أو التي طُحنت تحت رحى الدهور والازمان.

ويرجع الفضل الى ماسبيرو، وفلاندرز بتري، وأوجيست مارييت، وجورج سميث، وهوارد كارتر، وجان فيليب لوير، وغيرهم الكثير، في كشف النقاب عن اثار اجدادنا. وترميم ما حطمه المغيرون على مدى عقود وقرون. وزيادة على ذلك أن محمد على باشا وخليفته عباس الأول أرادا هدم اهرامات الجزية –التي عجزت عن هدمها جيوش المأمون–لاستعمال حجارتها في بناء القناطر الخيرية، لكن المهندسين الأجانب رفضوا الإستجابة لطلب الواليين وحالوا دون وقوع تلك الكارثة، ولولاهم لحرمت مصر والعالم من أعجب عجاب الدنيا التي ناطحت الزمن لنحو أربعة الآف وخمسمائة عام.

وفي عام 1825م، اقترح شامبليون على محمد علي باشا انشاء متحف للعاديات ومصلحة للاثار ففعل. وفي أيام محمد علي وخلفائه، كان يتم إهداء الآثار أولا بأول للاجانب. وما بقي منها وضع في غرفة بمصلحة المعارف بالقلعة، كان الموظفون يتناولون الطعام بها ويضعون ملابسهم واغراضهم فيها.

وفي1855م، استهدى ماكسمليان ولي عهد النمسا من سعيد باشا مجموعة الآثار التي استخرجها مارييت بين عامي 1852 و 1854 لتستقر في متحف التاريخ القديم بفيينا. ثم اهدى سعيد مجموعة أُخرى- استخرجها مارييت بعد ذلك- الى الأمير نابليون، فتم ايداعها في متحف اللوفر. وما بقي حفظ في مخزن على شاطئ النيل في الموضع الذي بني عليه مبنى التليفزيون بعد ذلك. ونتيجة للفيضان وارتفاع نسبة الرطوبة نقلها المسؤولون الى قصر إسماعيل باشا(حديقة الحيوان حاليا) حيث بقيت فيه الى أن نقلت الى المتحف المصري الذي إفتتحه الخديو عباس حلمي الثاني في 15 نوفبر 1902.

وطمعت الامبراطورة اوجيني في قلادة الملكة(حِتِبْ–حِرِسْ) أم الملك خوفو، فوافق الخديو إسماعيل على منحها إياها، بينما رفض مارييت المسؤول عن الآثار آنذاك وقال إن آثار مصر يجب أن تبقى في مصر.

وبينما حافظ مارييت على آثارنا، راح باشاوات الأسرة العلوية يهدونها ويبيعونها لمن أرادوا وأيما أرادوا. فأهدى محمد على باشا المسلة القائمة الان بميدان الكونكورد بباريس الى لويس فيليب ملك فرنسا. وحصل مقابها على طاولة بلياردوا، والساعة القائمة بمسجد القلعة. وأهدى خلفاؤه المسلات الأُخرى المقامة على نهر

التاميز بلندن؛ وتلك الموجودة بسنترال بارك في نيو يورك، وتلك القائمة في روما. وغير ذلك الكثير من الآثار.

ولم يكن الإهداء هو السبيل الوحيد لإنتقال آثارنا الى بلاد العالم، ولكنها كانت تنتقل عن طريق التجارة، التي كانت مباحة لمن يستطيع إليها سبيلاً من المنقبين بالطرق المشروعة وغير المشروعة. فكانت طامة العقود المبرمة تسمح للبعثة المنقبة بالحصول على مقدار معين من الآثار المكتشفة عوضاً عن المال.

ولما أقبل الأوربيون على شراء الآثار المصرية، وبدأت تذهب الى خارج البلاد؛ بينما تدخل أثمانها في جيوب اللصوص، أن أصدرت الحكومة قانوناً يجرم الإتجار بالآثار، ولكن ذلك لم يحل دون التنقيب والإتجار في الخفاء. وخاصة من قبل المواطنين المجاورين للمناطق الآثارية. فكانت اللقى تاتيهم عن طريق الصدفة أو عن طريق البحث المُبَيَّت النية.

واشتهرت عائلة عبد الرسول بتوسعها في التنقيب عن الآثار والإتجار بها. وأطلعتنا وسائل الميديا عن تورط بعض الشخصيات صاحبة النفوذ في تلك التجارة الرابحة، ألا وهي سرقة الوطن.

وعلى الرغم من أننا نحزن لوجود آثار بلادنا خارجها، مبعثرة في متاحف العالم؛ لكننا مطمئنون الى أنها محفوظة بعناية فائقة، والى نجاتها مما أصاب، ومما قد يصيب المحفوظة عندنا من إعتداءات بربرية، مثل الاعتداء الذي طال المتحف المصري، ابان ثورة يناير 2011م. وذاك الذي طال متحف بغداد عقب سقوط النظام البعثي. والتدمير الذي قام به تنظيم الدولة الإسلامية في آثار سوريا والعراق، والذي نجت منه آثار هذين البلدين المحفوظة في متاحف العالم. وهي في مأمن مما قد

يحدث في المستقبل جراء ثقافة الارهاب والتدمير التي لا تزال قابعة في عقول الرديكاليين وتراثهم. كما أن وجود آثارنا في بلاد العالم، يعد دعاية جيدة وتعريف لمرتادي هذه المتاحف من الاجيال الجديدة بحضارة مصر والشرق القديم مما يشجعهم على زيارة بلادنا لمشاهدة المزيد.

وعلى حكومات بلادنا أن تعمل على إسترداد آثار أجدادنا. ومع المطالبة بعودة تلك الآثار، لابد من العمل على تهيئة المناخ الأمن لها، وهو أمر أظنه صعب المنال! خاصة وأننا لم نتمكن بعد من إيقاف سرقة وتصدير الآثار حتى الان. ناهيك عن رغبة الرديكاليين في تحطيم التماثيل لأنها تؤرق مضاجعهم وتذكرهم باللات والعزى وهبل ومناة، أُسوة بتحطيم إخوانهم المجاهدين لتمثالي بوذا.

وقبل أن نتهم الغرب بسرقة آثارنا علينا أن نواجه أنفسا ونتبرأ ممن هدم حضارتنا، وإحتقر وقتل إنسانيتنا، وسرق ماضينا، وحطم حاضرنا، وزور تاريخنا، وإستعبد شعوبنا على مدى قرون عديدة. وحبس عقولنا في زنزانة الجهل، وحجب نور المعرفة عن العقل. فالغرب لم يسرق من آثارنا قدر ما استهداه من حكامنا، وما اشتراها من لصوصنا، وما حماه من جهلنا ومن إرهاب تراث دخيل على مصرنا. وإذا كان بعضهم تورط في السرقة، فليس جميعهم لصوص. وإذا كان بعضنا سرق الوطن، فليس جميعنا سراق.

وإحقاقاً للحق يجب علينا أن نشيد بجهود علمائهم في كشف وحفظ تلك الآثار؛ فهذا جان فيليب لوير يقضي خمسين عاما في دراسة وترميم مجموعة الملك زوسر وما جاورها. وماسبيروا مؤسس متحف العاديات في عهد محمد على، وماربيت، وغيرهما الكثير، كما لا ننسى جهود المنقبين في سوريا والعراق مثل لايرد وجورج

سميث وراسام وغيرهم، ولا ننسى المنقبين في شبه الجزيرة واليمن وبعضهم تعرض للقتل. ولا ننسى جهود منظمة اليونسكوا في انقاذ معابدنا الغارقة مثل معبدي ابي سنبل ومعابد جزيرة اجيلكا المعروف بمعبد فيلة. وغيرها من الآثار في مصر وفي البلاد العربية والمستعربة، بل وفي العالم اجمع.

ولولا علماؤهم، ما كنا عرفنا تاريخ أجدادنا، ولاندثر ما بقي من آثارهم. ناهيك عن استفادتنا من تقدمهم في كافة المجالات. فبينما كانت مدارسهم وجامعاتهم تخرج العلماء الحقيقيين مثل كوبرنيقوس، وجاليليو، ونيوتن، ولابلاس، ولافوزييه، وفليمنج، وماكسويل، واينشتاين وغيرهم الكثير؛ كان علماؤنا، يعتلون سدة الكتاتيب، يرفعون الفاعل وينصبون المفعول به، ويحرضون على هدم المعابد والكنائس على رؤوس أصحابها كما في كتاب "اقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة "للشيخ الدمنهوري، شيخ الجامع الأزهر، والذي مازالت قواعده تطبق الى أيامنا هذه. ناهيك عما هدمته معأول الجهل والتعصب على مر التاريخ كما رواه المقريزي والطبري وابن كثير، وابن عذاري، ليس في مصر فقط، بل وفي الشام والعراق وشمال افريقيا وغيرها. وعلينا أن نقرأ التاريخ من أوله، لكي نعرف من الذي حطم آثارنا، وهدم حضارتنا، وقتل إنسانيتنا، وحبس عقولنا في خزانة الجهل والتخلف على مدى قرون طويلة.

السيف والقلم

بين أحادية التفكير وثنائية المعايير

إعتمد المشتغلون بالالهيات على منطق أرسطو في تقنين المعتقدات الدينية؛ كما أخذوا عنه دليل المحرك الأول، لإثبات وجود الله. وأخذ النساطرة والمعتزلة عن افلاطون وأرسطو مبدأ التنزيه التجريدي لواجب الوجود. فقالوا بوجود الذات، ونفوا عنها الصفات، واعتبروها معاني مجردة خوفاً من القول بتعدد القدماء–على حد فهمهم–. وهو قول متناقض، لأن الذات لا توجد بلا صفات، والصفات لا توجد بلا ذات. وإذا كانت الذات ذات الله والصفات صفاته، فلا معنى للقول بتعدد القدماء !

وتجد البعض يتخذ المنطق وسيلة لإثبات ما يراه مليحاً وما يعتقد فيه صحيحاً؛ وفي نفس الوقت لا يجد غضاضة في تكفير من يستعمل ذات المنطق لكي يثبت رأيا يخالف رأيه. فيزن اراء ومعتقدات الآخرين بميزان العقل، ويأبى على الآخرين أن يزنوا اراءه ومعتقداته بذات الميزان. ولم يسلم ابو حامد الغزالي وإبن رشد من مسألة تكفير المخالف. فإتخذ الغزالي من المنطق والفلسفة أداة لإثبات ما يراه حقاً ولدحض ما رآه مخالفاً وباطلاً عند المتكلمين، وذلك من خلال كتابه(تهافت الفلاسفة)، لكنه خالف النهج المنطقي عندما لوح بسيف التكفير في وجه المخالفين له. وقام إبن رشد بالرد على(تهافت الفلاسفة)، من خلال كتابه(تهافت التهافت).

وأصاب في محاولته للتوفيق بين العقل والنقل من خلال كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من إتصال). وقد بنى محاولته على إعتبار أن العقل من الله والوحي من الله، ومن ثم فلا يجب أن يتناقض الوحي مع العقل. وقال بضرورة

تأويل المتشابه لكي يصبح معقولاً. لكن وجهة الفيلسوفين الكبيرين لم تكن خالصة للمنطق والعقل، وإنما إنطلقت من الغيبيات والمرويات، وانتهت اليهما. ولم يجد كل منهما بداً من التسليم باللا- مبرهنات والخضوع للعقل الجمعي في بعض الأحيان. على عكس التفكير المنطقي الخالص الذي يبدأ بالفرضيات، ولا يقيم نتائجه على غير مقدمات.

وعلى الرغم من ذلك لم يسلم إبن رشد نفسه من التكفير، ولم تنجوا كتبه من الحرق والتدمير. وهو نفسه وضع في(فصل المقال) محازير تكفيرية بين أهل الخطابة، وأهل النظر، وأهل الإيمان، متى تدخل أي منهم في إختصاص الآخر. وهذه المحازير تلجم حرية التفكير، وتنسف المنطق من أساسه.

ويقوم المنهج العقلي في التفكير على الشك في كل ما يُعرض عليه، حتى يصل الى الحقيقة. أما النهج النقلي فيرفض مبدأ الشك رفضاً باتاً، ويقر بصحة المنقول حتى وإن خالف المحسوس والمعقول.

والمنهج العلمي يقدم المعقول على المنقول الى أن يتبين الحق من الباطل، والصحيح من العاطل. فإذا ما تبين لصاحبه الصدق أخذ به واقبل، وإذا تبين له خطأه، تركه وأدبر. أما العقل الجمعي فيعطي الأولوية للمنقول والموروث حتى وإن خالف الضمير والمحسوس.

والمنهج العقلي يؤمن بالحرية المطلقة في التفكير، وبالحقيقة مستقلة ومجردة عن الفرد والمجموع، فيتعتد بالحقيقة وليس بقائلها؛ وأما النهج الجمعي فيلزم العقل بالخضوع المطلق للمنقول حتى وإن تشابه عليه. ويذعن للاشخاص إذعان الكفيف للمبصر. ويخضع له خضوع العبد المطيع لسيده. فالأشخاص هم الحقيقة، والحقيقة

هي الأشخاص. ومن ثم ينقاد إليهم إنقياد الطفل لأبيه والظل لصاحبه. ويصدق كل ما يقولوه من اراء ونُقُول. وإن وجد بعضها يخالف العقل، يأولها، ويقحمها في معاني باطنة غير معانيها الظاهرة، لكي يرفع عنها التشابه.

والمنهج العقلي لا يعاقب من يسأل ومن يبرهن على بطلان أمر كان معمولاً به على أنه حقيقة، وانما يقر به عن طيب خاطر. ويظل الحق دائما هو المقياس وليس الناس. أما العقل الغيبي فيعاقب من يبدي رأياً يخرج الناس عن الصفوف، ويحرم السؤال الذي يشكك في المعروف والمألوف.

ومن هذا المنطلق، لم يتواني الامام مالك عن عقاب من سأل عن شبهة الإستواء على العرش. فجُلد، وطرد من حلقة الدرس. وقبل أن يأمر بطرده، فإنه أجابه بأن "الإستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة". ثم عاقبه بالطرد، وفي رواية أُخرى بالجلد.

وفي جوابه بأن الإستواء غير مجهول، دل على أخذه بظاهر الاية، وهو الإستواء كما يفهمه الجمهور. وفي قوله بأن الكيف غير معقول، إقرار بالتشابه. وقوله أن الإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، هو اجبار على الإيمان بالمتشابه دون اقتناع. وفي احتساب السائل من زمرة المبتدعين، واجازة العقاب البدني، فيه ردع للعقل عن التفكير والسؤال. وفي ذات الوقت يكفرون المسيحيين على قولهم بالتجسد !

ونزولا على رغبة أصحاب السلطان من بني امية، كفر بعضهم القائلين بحرية الإنسان وبمسؤوليته في تقدير افعاله. وراحوا يستعملون سلطتهم في فرض الجبرية، وأن الله هو من يكتب على العبد أعماله منذ مولده، وهو الذي يقرر مصائر الناس

ومصابهم. فينفون مسؤولية الفرد عن افعاله، لكي يبرروا تجاوزات أصحاب السلطان في حق الشعوب، بحجة أن هذا مقدر ومكتوب على الظالم والمظلوم. وفي نفس الوقت يطبقون الحدود على السارق، والقاتل، والزاني باعتبارهم مسئولين عن افعالهم !

وهناك أبيات منسوبة الى الوزير الفاطمي طلائع ابن زوزيك يفند فيها زعم القائلين بالجبر:

يا أُمة سلكت ضلالاً بيناً .. حتى إستوى إقرارُها بجحودها
ملتم إلى أن المعاصي لم تكن ..... إلاً بتقدير الاله وجودها
لو صح ذا كان الاله بزعمكم .. منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلاًّ أن يكون الهُنا ..... ينهى عن الفحشاء ثم يديرها.

ولو كان طلائع يعيش في عصر بني أمية لما إختلف مصيره عن غَيْلان الدمشقي الذي تم التنكيل به في خلافة هشام إبن عبد الملك، على قوله بأن الإنسان مخير وليس مسير، وقطعوا يده ورجله. وبعد أيام مر به رجل، والذباب يقع بكثرة على يده المقطوعة، فقال الرجل ساخراً: يا غيلان، هذا قضاء وقدر ! فقال له غيلان: كذبت، ما هذا قضاء ولا قدر. فلما سمع الخليفة بذلك، بعث إلى غيلان من حملوه اليه، وصلبه على إحدى أبواب دمشق. وفرح بموته علماء السلطان، وقالوا: أن قتله أفضل من قتل ألفين من الروم ! فالناس على دين ملوكهم. والجهل سلطان له الغلب. وكان والد غيلان الدمشقي قبطياً من موالي عثمان. وولد غيلان وعاش في دمشق بالقرب من باب الفراديس. هناك تأثر بالجدل الفلسفي واللاهوتي.

كما درس الفقه على الحسن البصري، وذكر إبن النديم رسائله التي طالها ما طاله وأُعدمت مثله !

وقُتل الجعد إبن درهم بأمر هشام أيضاً، لأنه كان يقول بحدوث كلام الله، فقبَضَ عليه والي العراق خالد بن عبد الله القسري، وقيده في المنبر مثل الخروف. وختم خطبة عيد الأضحى، بقوله للناس: أيها الناس ضحُّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم .. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر" !

ولما إعتنق المأمون عقيدة المعتزلة في قولهم بخلق القران، أصبح يعاقب بالضرب والحبس من يقول بأزليته من أهل السنة. ولما إعتلى المعتصم سدة الخلافة، فإنه اطلق المحبوسين، ونكل بمن كان يقول بخلق القرآن على عكس ما كان يعتقد اخوه المامون.

وبينما يحكم البعض بضلال المعتزلة على قولهم بخلق كلام الله، تراهم يكفرون المسيحيين على قولهم بقدم كلمة الله الذي اتخذ من السيدة العذراء مريم ناسوتاً في ملء الزمان، ويرفضون حجة المسيحيين بأنه كما تتحد الروح بالجسد دون إختلاط ولا امتزاج ولا تغيير، اتحد في شخص السيد المسيح ما لم يزل(لاهوت الكلمة) بما لا يزال(الناسوت) بلا انحصار وبلا تبديل. علما بان كلمة الله في عقيدة المسيحيين ليس هو لفظة من الفاظ الوحي، وانما هو علم الله الذاتي، وهو يقابل كلام الله النفسي القديم عند الأشاعرة. كما أنهم يؤمنون بزمنية الناسوت. وإذا كنا نبجل كتب الوحي لما تحتوي عليه من نصوص مقدسة؛ ولا نفصل في الكرامة بين المادة الورقية وبين النصوص الوحيية. فلماذا نستنكر على المسيحيين تقديسهم لناسوت المسيح المتحد بلاهوته- على فرض أننا لم نستوعب وحدة الطبيعتين، ولا نعتقد في

عقيدتهم أصلاً. ولماذا تقبل المتشابه عندك، وتُكَفِّر من يقبل ما تراه أنت متشابهاً عنده ؟!

وسواء كانت عقيدة المسيحيين مناقضة أو موافقة للعقل، إلا أنهم لا يجلدون السائل عنها ولا يقتلون الناكر لها من أبناء الملة. فلا يتجاوز الأمر حد الحرمان من التبيعة للكنيسة، وهو عقاب روحي، لفظي وليس بدني.

ولم يسلم بعض رجال الكنيسة الرومية من الإستعانة بالسلطة الزمنية لفرض قرارات مجمع خلقدونية بالقوة، مخالفين تعاليم السيد المسيح وقوانين الرسل الكرام. وحوكم الراهب والفلكي جوردانو برونو بتهمة الهرطقة وتم حرقه. وجردوا الاسقف البولندي كوبرنيقوس من رتبة الاسقفية ومنعوه من التدريس بسبب قوله بدوران الارض وبثبات ومركزية الشمس. ومعنوا الراهب جاليليو جاليلي من التعليم بسبب تبنيه لنظرية سلفه والبرهنة على صحتها. وحددوا إقامته. والشئ الغريب أن ما قال به العالمان الكبيران لا يتعارض من قريب أو من بعيد مع نصوص الكتاب، ولكنه خالف فهم جهلتهم لتلك النصوص.

ولما أدركت الكنيسة فداحة الأخطاء التي إرتكبها بعض رجالها في حق هؤلاء العلماء، وكان هؤلاء العلماء أيضا من الرهبان والأساقفة،، لم تستنكف الكنيسة عن الإعتزار عن تجاوزات رجالها. ولم تترد في إعادة الحق لأصحابه وتكريم من أهانتهم في حياتهم بعد مماتهم. ومع ذلك لا تزال بعض الأصوات تزعق بتجاوزات الكنيسة في حق العلماء، بينما تنحني إجلالا وتقديسا لمن يفتون الآن بأن من يقول بدوران الأرض وثبات الشمس كافر يستتاب وإلا قتل !

ولا يزال النهج السلطوي بمرجعيته التراثية يمثل التحدي الاكبر أمام حرية العقيدة والرأي وأما العقل بصفة عامة، فيناصبه العداء ويقف له بالمرصاد: إذا سأل، بدع، وإذا فكر، ضل، وإذا تمنطق، تذندق. وكان، ولا يزال، المُصَدِّر للتطرف والارهاب. وعندما يعجز عن مجابهة الاراء المخالفة، فإنه يلجأ الى سلاحه المعهود: التكفير والتحقير.

والواقع أن حرية التفكير، التي يقفون لها بالمرصاد، لا تتعارض مع مقاصد الباري الذي خلق الإنسان حراً في التفكير وسيداً في التدبير. ولا تتعارض مع الفطرة الإنسانية التي تنزع الى إحترام الإنسان بما هو إنسان بغض النظر عما يعتقد به. واحترام حرية التفكير وابداء الرأي والتعبير، حتى وإن كان على خطأ، على أن يواجه الفكر بالفكر والرأي بالرأي والحجة بالحجة وليس بالقمع.

ومن المفترض أن يكون رجل الدين أكثر الناس حرصاً على أرواح العباد، وليس إباحتها والتحريض عليها. بل من المفترض أن تكون سلطته روحية، وألا تكون له سلطة مادية من أي نوع. لأن العقوبات البدنية هي شأن رجل القانون، يقننها على المجرمين بما لا يتجاوز الفعل المقترف، وليس على الفكر والعقيدة.

ومن المفترض أن يكون رجل الدين أكثر الناس تسامحاً وإيمانا بحرية الرأي والمعتقد، وليس قهرهما والإستبداد بهما. فإذا رأي–على سبيل المثال– أن تعدد الزوجات وكثرة الإنجاب والطلاق تضني المرأة، وتضر بالمجتمع اقتصادياً وتربوياً ونفسياً وأمنياً، فلا يجب أن يقف عائقاً أمام خير المجتمع، لأن السبت جعل لاجل الإنسان وليس الإنسان من اجل السبت. والتشريع جعل لخير الانسان ولسعادته، وليس لضرره وضنايته.

الخير يا أهل الخير !

الاحتفالات الدينية والقومية قديمة بقدم الإنسان. ومع تحول المصريين من الوثنية الى المسيحية، ظلوا محافظين على بعض الاحتفالات القومية التي كانوا يمارسونها في وثنيتهم، مثل الاحتفال بشم النسيم(عيد الربيع) في مصر. كما أنهم استبدلوا الاحتفال بأعياد آمون وغيره من الآلهة بالاحتفاء بميلاد المسيح وبشهادة القديسين. ومع تحول اكثر الأوربيين الى الالحاد، لكنهم لا يزالوا محافظين على بعض الطقوس والاحتفالات الدينية. مثل طقس الزيجة والعماد والجناز، والاحتفال بعيد الميلاد.

ومع تحول كثير من المسيحيين الى الإسلام في البلاد التي احتلتها الجيوش العربية، طواعية أو هرباً من دفع الجزية، واتقاءا لشروط العهدة العمرية المذلة، فإنهم احتفلوا بالمولد النبوي الشريف على غرار احتفال المسيحيين بميلاد السيد المسيح. كما أنهم ظلوا مواظبين على مشاركة إخوانهم الذي بقوا على مسيحيتهم في احتفالاتهم مثل الاحتفال بالشعانين وبغيره من المناسبات التي ذكرها الشيخ إبن تيمة ونهى المسلمين عن ممارستها، بقوله: "وانما عددت أشياء من منكرات دينهم لما رايت طوائف من المسلمين قد ابتُلي ببعضها. وجهل كثير منهم أنها من دين النصارى الملعون هو وأهله"[1].

1) أحمد بن تيمية، اقتضاء السراط المستقيم، صـ 475 .

والحقيقة أن رسالة السيد المسيح رسالة مباركة تدعوا الى العدل والرحمة والعفة والقداسة وعمل الخير. وتنهى عن كافة الشرور: عن الظلم والعدوان، واللعن والسباب والسرقة والزنى والقتل والنهب والاسترقاق، وغير ذلك من الشرور والآثام. وفوق ذلك أنها تدعو الى محبة الاعداء والمسيئين ومباركة الشاتمين واللاعنين، والصلاة من أجلهم، وطلب الهداية لهم.

ومنذ عقود، وقبل أن يستخرج الرديكاليون سموم الكراهية والتكفير من كتب التراث، ليبثوها في نفوس الناس، ويعملون بكل قوتهم على التفريق والعداء بين ابناء الشعب الواحد. كان جميع المصريين من المسلمين والمسيحيين يحتفلون برأس السنة وبشم النسيم وبغيرهما من المناسبات القومية والدينية. وفي كل عام كنا –ولا زلنا– نشتري حلويات المولد والحصان والعروسة المصنوعين من السكر للاطفال. بل واتذكر انني تنأولت حلويات المولد في بيوت بعض الاباء (القسوس) الذين كانوا يواظبون على شرائها.

وفي القرى والأحياء الشعبية، كان المسلمون يمرون على بيوت المسيحيين ويعيدوا عليهم فردا فردا، ويدا بيد، والقلوب تبهتج على انغام "كل سنة وانت طيب". وكذلك الحال في أعياد الاخوة المسلمين، كنا نمر على بيوتهم بيتاً بيتاً نصافحهم ونهنأهم باعيايدهم ونشاركهم في افراحهم. أما في المدن الكبيرة مثل القاهرة، فتتم معظم المعايدات عبر الهواتف، بينما تقتصر الزيارت على الجيران، والاصدقاء والزملاء المقربين.

كان هناك تعايش وتسامح حقيقي؛ ولكنه –مع كل أسف– بدأ يقل رويداً رويداً مع تنامي الجماعات الرديكالية التي أخذت تكثف نشاطها في نشر الكراهية

والارهاب منذ اطلق الرئيس الراحل انور السادات العنان لها لكي يضرب بهم الشيوعيين، والمعارضين، فضرب بهم امن الوطن وسلام المواطنين، عن غير قصد – وهذا لا ينفي كونه بطل الحرب والسلام.

وفي الوقت الذي تسعى فيه الدولة المصرية، بجهد وعزم صادقين، وبشكل غير مسبوق، الى التأكيد على وحدة الشعب المصري، وتوطيد روح المحبة والاخاء بين المواطنين؛ وفي الوقت الذي تسعى فيه الحكومة السعودية الى إخراج المواطن السعودي من خندق التزمت والتشدد الوهابي بخطوات أولية فاعلة كان آخرها الاحتفال برأس السنة. وفي الوقت الذي يكافح فيه المفكرون ضد الرجعية والتطرف؛ إلا أننا لا زلنا نسمع– ونقرأ–أصواتاً أُخرى ترى في تهنئة المسيحيين، وفي افشاء السلام لهم، وفي موادتهم، مخالفة شرعية، واكتفي منها بما يلي:

قال الشيخ الحويني: "يُحرَّم على المسلم أن يشارك غير المسلم في أي عيد من الاعياد".

وقال الشيخ عثيمين: "ان تهنئة النصارى باعيادهم حُرمَت، إنها محرمة بالاتفاق".

وقال الشيخ الشعراوي: "ولذلك يجب أن نستعيذ بالله من أن نصنع تصرفاً يرضي اليهود أو النصارى. لأن معنى انني اتصرف تصرف يرضي اليهود والنصارى؛ انني، بحكم الله عليَّ، اتبعت ملتهم".

وكتب الشيخ الدمنهوري في حجته الباهرة نقلا عن سلف الفقهاء:

"يحرم تصديرهم في مجلس فيه مسلمون، وموادتهم وافشاء السلام لهم، وإن سلم على من ظنه مسلما ثم علمه ذميا؛ إستحب قوله: رد علي سلامي..وتحرم تهنئتهم وتعزيتهم وعيادتهم أن لم يُرج إسلام المُعاد..ولا يجوز القيام لهم، ولا بداءتهم

بالسلام كما تقدم..ويجوز أن يقول له اكرمك الله، وهداك الله، يعني بالإسلام، ويجوز: اطال الله بقاءك، واكثر مالك وولدك، قاصدا بذلك الجزية .." [1].

ويتعلل الرديكاليون بالنهي عن المشاركة في الاحتفالات لأنها تخالف العقيدة الإسلامية؛ ولأنها تقترن بالسكر والمجون–على حد قولهم.

والواقع أن الاحتفال براس السنة الذي يقام في الشوارع والميادين، والذي يشارك فيه بعض الاخوة المسلمين، هو احتفال ترويحي؛ يجرى على سبيل العادة وليس العبادة؛ مثله مثل الاحتفالات القومية والرياضية.

وهذا النمط يختلف عن الاحتفال برأس السنة داخل الكنائس حيث تقام الصلوات وتلقى العظات التي تحث المؤمنين على ضرورة المصالحة مع النفس ومع الآخرين؛ وعلى التوبة عما اقترفوه في العام المنصرم من هفوات وهنات ومن أخطاء وزلات؛ وعلى السير في طريق الفضيلة والقداسة خلال ما بقي من العمر. كما يحتفل المسيحيون داخل الكنائس بميلاد المسيح، والذي يُجمع عليه المسلمون والمسيحيون: المسلمون لأنهم يعتقدون في نبؤته، وفي تمثل كلمته. والمسيحيون لأنهم يعتقدون في تأنُس لاهوته وتجسد كلمته.

ولا يقف المتشددون عند حد النهي عن المشاركة الفعلية، وانما ينهون حتى عن التهنئة بالمشاركة الوجدانية بين ابناء الشعب الواحد؛ مخالفين بذلك الفطرة الإنسانية، والمقاصد الربانية، ومدعين بأن من يشارك المسيحيين في احتفالاتهم، أصبح مشاركاً لهم في عقيدتهم، ومتبعا لملتهم. والدليل البين على عكس ما يدعي المدعون أنه منذ قرون ويهنئ الناس بعضهم بعضاً، ويشاركون بعضهم بعضا في

---

1) الشيخ احمد الدمنهوري، اقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة، صـ 135.

الاحتفالات. ولا يزال كل على عقيدته. بل واكثر من ذلك أن كثيرين من غير أهل الكتاب قرأوا الانجيل والتوراة ولم يعتنقوا المسيحية ولا اليهودية. وكثيرون من غير المسلمين قرأوا القران الكريم، والأحاديث الشريفة، ولم يعتنقوا الإسلام. وأن من أتباع الديانتين من ألحدوا، وانكروا وجود الله. إذا فليس للتهنئة ولا للمشاركة في الاحتفالات تأثير من شأنه أن يصرف الإنسان عن معتقده.

وما شأنك يا اخي المتشدد إذا تخلى فلان عن عقيدته أو ابقى عليها؟ إن حسابه على الله وليس عليك. واين هي حرية الإنسان في إختيار عقيدته؟ ولماذا يكون تغيير العقيدة مقبولا في اتجاه ومرفوضا في الاتجاه آخر؟! ولماذا تعطي لنفسك الحق في أن تدعوا الآخرين لدينك في بلاد الشرق والغرب الذي ينفق على دعوتك وبيت عبادتك، وتجرم أنت دعوتهم لدينهم، وتقتلهم وتفجر بيوت عبادتهم في بلادك وفي غير بلادك؟! ثم تكيل لهم اللعنات وتتهمهم بالعنصرية وأنت صانعها، وتنعتهم بالكرهية وأنت مبدعها. لماذا تكيل بمكيالين فتستحل غزو بلاد الآخرين وتخيرهم بين إتباع عقيدتك أو الجزية أو القتال، وتحرم عليهم التبشير بديانتهم غير المشروط بجزية ولا بقتال ؟!

ولا يستنكف المتشددون يعلنون السبب الحقيقي لبث العداء تجاه المسيحيين، تارة بالشفاه وأُخرى بالمداه، إلا وهو النظرة الدونية والتحقيرية لهم، والتي جسدتها العهدة العمرية، والكتب التكفيرية والخطوب التاريخية، والخطب التحريضية، والتي تعارض فطرة الإنسان ومقاصد الباري الذي"يشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويمطر على الابرار والظالمين. والذي يأمر الإنسان بأن يحب لاخيه الإنسان ما يحب لنفسه. وينهاه عن أن يفعل بأخيه الإنسان ما يأباه على نفسه كما يقول السيد

المسيح–له العظمة والمجد–: "كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا هكذا انتم ايضا بهم لأن هذا هو الناموس والانبياء"(مت7).

والله وحده–أقول وحده–الذي يحاسب الناس على افعالهم ونياتهم ولا يقاضيهم على معتقداتهم التي ورثوها عن أهلهم، وشبوا عليها في صغرهم.

وإذا ألحد جميع الناس فلن ينقص الله شئ، وإذا عبده كل الناس فلن يزيده شئ.

واعتقد أن السبيل الامثل لنشر التسامح يبدأ بإعمال العقل ونقد الذات، ورفع هالة التقديس عن كل ما يعمل على نشر الكراهية والارهاب. وإن كان هنالك تنافس وأفضلية، فلتكن في التقوى وعمل الخير. وإن كان هنالك سباق، فليكن في نشر المحبة والوفاق. وإذا لم يكن ذلك هو ديدن رجل الدين، فقل عليهما السلام، ولا تلُم الملحدين !

ان مسئولية خطأ مواطن في حق مواطن، ليست مثل مسئولية ارتكاب نفس الخطأ في حق الرئيس أو الملك. وإذا اقتضت الضرورة الشفاعة في حق من أخطأت اليه من المواطنين، فيمكن لفرد آخر أن يتوسط بينكما. أما إذا أخطأت في حق الملك فان وساطة المواطن لا تشفع ولا تنفع. وماذا يكون الأمر إذا أخطأت في حق الله العظيم غير المحدود ؟

ومن يمكنه أن يكفر عن خطيئة الإنسان، ويوفى حق العدل الالهي الذي قال له يوم تخالف العهد تؤول الى الموت ؟

فلابد لمن يكفر عن خطيئة الإنسان أن يكون غير محدود؛ لأن الخطيئة وجهت نحو الله غير المحدود. ولابد أن يكون الفادي من جنس البشر، ولا يكون واقعا تحت القصاص. ومن ثم فالملائكة لا يصلحون لأنهم ليسوا من جنس الإنسان. والإنسان لا ينفع لأنه واقع تحت القصاص. والخروف لا يناسب لأنه أدنى من الإنسان. وليست له ارداة حتى يتطوع لحمل العقوبة عنه.

اذن، هل يموت الإنسان ويفشل قصد الله ؟ – كلا!

لأنه يعلم مسبقا أن آدم سوف يعصيه، وأنه تعالى سوف ينجيه من الموت بطريقة لا تنقص من عدله ولا من رحمته؟ لأن العدل يوجب موت الإنسان، والرحمة تقتضي نجاته. ومن ثم، أخذ الله يمهد للبشر خطة الفداء العظيم. فعندما سقط آدم وحواء في المعصية، البسهما الله اقمصة من جلد. وهو ما يعني أنه عرفهما كيفية ذبح الحيوان والاكتساء بجلده. وبما أن الله قادر على كل شئ، فما

كان عسيراً عليه أن يلبسهما اقمصة من حرير أو من كتان دون حاجة الى ذبح الحيوان، ما لم تكن لذلك ضرورة ورمز للفداء.

ونصت الشريعة الموسوية على تقديم الاضحيات الحيوانية للتكفير عن الإثم. وكان على مقدم الضحية أن يضع يده على رأس الكبش، ويقر بذنبه ثم يذبحه ويأكل من لحمه(لا3، 4، 5، 8، 16). والقصد من ذلك هو أنه عندما يضع يده على راس الذبيحة، ويقر بذنبه ينتقل الذنب الى الحيوان- رمزياً- فينال الكبش العقوبة بدلاً عنه. وعندما يأكل منه يختلط جسم الكفارة بجسم الإنسان المُكَفِرْ عنه، فينال التبرير. وكان ذلك رمزاً للفادي العظيم.

وجاء بسفر التكوين(تك22) ان الله طلب من ابراهيم أن يذبح ولده، ثم افتداه بكبش. ولو كان ذلك الطلب لإختبار طاعة الخليل فقط، لصرفه لحال سبيله بعد امتحان طاعته، ولَمَا كان هناك داعي لأن يرسل اليه خروفاً ليذبحه ما لم يكن لذلك غرض ما، هو إعلامنا بضرورة الفدية والكفارة. "وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ"(القران الكريم). والخروف في حد ذاته ليس بعظيم، بل وليس بأعظم من الإنسان، ولا حتى مساوي له؛ وانما كان ذلك رمزا للفادي العظيم، يسوع المسيح، الذي مات لفداء البشر.

وموت المسيح لا يعنى موت لاهوت الكلمة. فإذا كانت روح الإنسان عندما تغادر الجسد لا تموت؛ فكيف يموت اللاهوت ؟! ولكن موت المسيح يعني أن الروح فارقت الجسد- لوقت معين- أما لاهوت الكلمة فلم يفارق الروح ولا الجسد. وقد مات المسيح بإرادته المطلقة، ولهذا قال: "لي سلطان أن اضعها، ولي سلطان أن أخذها"(يو10). لأن من اقام الاموات، كان بمقدوره أن يبيد الأعداء، ولكنه جاء لخلاصهم. ومن ثم فالصليب يجسد محبة الله للإنسان التي من اجلها خلقه، ولما

أخطأ إفتداه وخلصه. "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لاجل احبائه" (يو15).

وعند الصليب، انفض عنه كثيرون لما رأوه ضعيفاً ظانين أنه مغلوباً على أمره. ولم يعلموا أنه بموته قد اباد الموت. لأن مفهوم الخلاص عند اليهود لم يزد عن معنى التخلص من المستعمر الروماني. ولذلك كانوا ينتظرون منه أن يُكَوِّن جيشاً يسحق به الرومان المحتلين لبلادهم. ولكنه لم يات ليقتل الخطاة وعبدة الأوثان بل جاء ليهديهم ويخلصهم. وهو قادر على هداية من يستحق الهداية، دون ارهابهم واعمال السيف في رقابهم، وذلك من خلال تعاليمه السامية واعماله الباهرة. وهو لم يهدف أن يقيم مملكة أو امبراطورية، ويتسلطن هو وحواريوه على اموال وجثث العباد كما يفعل السلاطين. ولكنه جاء ليُعد للجميع الطريق الى الملكوت السماوي الذي لا ينتهي.

ولهذا يتخذ المسيحيون الصليب شعارا ورمزا يعلوا كنائسهم ويعلقونه في صدورهم وفي بيوتهم لأنه رمز خلاصهم. وأنهم لا يعبدوه كما يتهمهم البعض.

فكما يعلوا الهلال المساجد ولا يعبده الاخوة المسلمون، كذلك يعلوا الصليب الكنيسة ولا يعبده المسيحيون. وقد تعانقا اثناء ثورة 1919، قبل أن يتمكن الرديكاليون من فصلهما الى اجل غير مسمى. لأنه يثير نكدهم وحنقهم.

ونتمنى اليوم الذي يزول فيه الحنق ويتعانق رمزي الشعب الواحد، ويتسع صدر الرديكاليين لقبول الآخرين كما هو الحال في بلاد الغرب حيث يعيش الناس، على إختلاف معتقدهم الديني، تحت مظلة القانون بلا تمييز. هذا هندوسي يكرم البقر،

وهذا مسيحي يحترم الصليب رمز فداء البشر. وهذا مسلم يحج الى مكة والمدينة ليرجم الشيطان ويقبل الحجر. وهذا ملحد لا يعترف بوجود الله ولا بقضاء ولا قدر.

فليعتقد كل إنسان كما يطيب له أن يعتقد. ولكن ليس من حق أحد أن يزدري ويكفر ويضطهد من لا يعتقد عقده، ومن لا ينحو نحوه. لأن ذلك يتعارض مع عدل الله ورحمته، ومع حرية الإنسان وكرامته.

وليس من حق أحد أن يمنع أحدا من المجاهرة بمعتقده؛ ولا أن يمنع عن غيره ما يبيحه لنفسه بحجة أن الآخرين على باطل وهو على حق. وذلك ببساطة لأن الآخرين يرون في عقيدته ما يراه هو في عقائدهم. إذا فلا سبيل للتعايش في ظل القهر ومنطق الغلبة لأنه مبدأ ظالم، والظلم ليس من الحق وليس من العدل. فإذا اجزت لنفسك أن تعمل عقلك فيما يعتقد به الآخرون فلا تقم حرباً على من يعمل عقله فيما يسئ اليه ويدعوا الى إضطهاده في وطنه. وبدلاً من أن تنتقد صليبه المحيي، ارفع عنه سيفك المميت. ولا تلعنه ولا تكفره، ولا تحرض ضده، ولا تسجنه، ولا تقتله، ولا تهدم بيته ولا بيعته.

وبعيدا عن مدلوله الرمزي والعقائدي، فالصليب الذي يثير غضب الرديكاليين، ما هو إلا مادة جامدة تمثل شكلا هندسيا(خطين متقاطعين) قلما يخلوا منه مكان فنراه في منازلنا، ومنشآتنا، وبيوت عبادتنا، وعلى ملابسنا واغطية مؤائدنا. وحتى بعض الادوات والالات المعدنية والخشبية تكون على شكل صليب. ونحمد الله أنه ليس على شكل خنجر أو رمح أو مسدس أو سيف، أو أي أداة أُخرى من أدوات القتل والتعذيب التي يتباهى بها الرديكاليون، كارهوا الصليب، ويتخذونها شعاراً لهم. وهو ليس مكبر صوت يكال منه اللعنات تلوا اللعنات على احفاد الخنازير والقرود

من أهل الكتاب. وانما هو رمز لمحبة الله للإنسان ولانقاذه من الموت الابدي. وعليه مات المسيح لكي يُحيي الآخرين. وقد اتخذه رسله الكرام–والمؤمنون من بعد–رمزا للجهاد الروحي ضد الشيطان وللزهد في الحياة، ولقمع الاهواء والنزوات، والغرائز والرغبات، والاطماع والاحقاد، كقول المغبوط بولس:

"مع المسيح صلبت فاحيا لا أنا بل المسيح يحيا في"(غل20).

ما الذي يضيرك من كنيسة يعلوها صليب، وفي داخلها يتعلمون أن يردوا عدوانك بالمحبة، ويجابهوا ظلمك وإرهابك بالخير عملاً بقول مولاهم: "لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر ايضا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء ايضاً.. أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا الى مبغضيكم. وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم. لكي تكونوا أبناء ابيكم الذي في السماوات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين.

لانه ان أحببتم الذين يحبونكم فاي اجر لكم أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك. وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون اليس العشارون ايضا يفعلون هكذا. فكونوا انتم كاملين كما أن اباكم الذي في السماوات هو كامل".

ما الذي يضيرك من كنيسة يعلوها صليب، ويتعلمون فيها "ان كل من ينظر الى إمرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه".

ما الذي يضيرك من كنيسة يعلوها صليب، وفي داخلها يتعلمون عمل الخير عملاً بقول مولاهم: "احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم وإلا فليس لكم أجر.. وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلاً كالأمم فإنهم يظنون أنه

بكثرة كلامهم يستجاب لهم. فلا تتشبهوا بهم لأن اباكم يعلم ما تحتاجون اليه قبل أن تسالوه...فإنه ان غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم ايضا أبوكم السماوي. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم ايضا زلاتكم...لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض...لا تدينوا لكي لا تدانوا. لانكم بالدينونة التي بها تدينون تدانون وبالكيل الذي به تكيلون يكال لكم. ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها... يا مرائي أخرج أولا الخشبة من عينك... فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا انتم ايضا بهم لأن هذا هو الناموس والانبياء".

مهلا أخي المتطرف !

عندما عمل الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على التأسيس لمبدأ العروبة رافعا شعار: الجمهورية العربية المتحدة، كوسيلة يوحد بها العرب ضد الكيان الصهيوني والإستعمار، لم تكن دول الجزيرة العربية نفسها، تحمل في شعارها لقب عربية مثل سلطنة عمان، ومملكة البحرين؛ ولا غيرهما من دول الجوار الناطقة بالعربية مثل المملكة المغربية، والجمهورية الجزائرية. فكل دولة تعتز بهويتها ولا تتمسح في دول الجوار إلا نحن كأن هويتنا المصرية لا تكتمل إلا بهوية غيرنا؛ مع أننا أصحاب أعظم حضارة عرفها العالم.

ولا يعني تحدُثْنا بالعربية أننا عرب–مع تقديرنا واحترامنا الكامل للاخوة العرب– كما أن تحدث المغاربة بالفرنسية لا يعني أنهم فرنسيين. ولكن هذا لا ينفي أننا جميعا إخوة في الإنسانية. وإن ترسيخ ذلك المبدأ الإنساني–الذي اكتب من اجله– عوضا عن القوميات والتكتلات العرقية والمذهبية، انما هو السبيل الامثل لسيادة المحبة والسلام ولعمومية التآخي والوئام بين ابناء آدم؛ ولتضافر الجهود للعمل والبناء. وأزعم أن قادة الدول العربية، والناطقة بالعربية، يسعون في هذا السبيل، بينما يعوقهم التيار الرديكالي الذي يحيا خارج الزمن. ويجتر الماضي ويحيا به ومنه وله. ويضمر البغضة لكل ما يخالف ماضيه، الذي لم يقرأه بعناية، لأنه لو قرأه بحيادية وتعقل لادرك أنه لم يكن الماضي السعيد؛ وأنه لا يختلف عن بقية الماضوات، بل وتفوق عليها في أنه لا يزال الماضي الوحيد الذي يكرس لثقافة الكراهية، على شاكلة:

"إن المؤمن تجب مولاته وإن ظلمك وأساء اليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك واحسن اليك"، "لا اكرمهم اذ اهانهم الله، ولا أعزهم اذ اذلهم الله، ولا أدنيهم اذ اقصاهم الله" (ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم & مجموع الفتاوى).

مع أننا نؤمن بالله واليوم الآخر. وليس من حق الإنسان أن يبغض أخيه الإنسان ويسئ اليه، ويتحكم في مصيره الدنيوي، ويحكم في مصيره الابدي مهما كان إعتقاده ؟! وهؤلاء الذين تهينهم وتضطهدهم، قال فيهم القران الكريم: "وَلَتجدن أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى.."(المائدة 82). "وَقولوا آمَنَّا بِالذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"(العنكبوت 46).

وأما النهي عن الموالاة الوارد في سورة النساء(144)، ففضلا عن أنه لا يأمرك بأن تبغضهم، فإنه ينهي عن موالاة بعض اليهود الذين كانت بينهم وبين المسلمين الأوائل عداءات—وقد رد لهم المسلمون الصاع صاعين وثلاثة وعشرة—ولا يعني بهم سكان الكرة الأرضية. فما ذنب المصريين والامازيغ والأسبان وأهل الشام والعراق وخراسان وغيرهم حتى تُحتل بلادهم وتضرب الجزية على رقابهم. ولم يسيئوا لأهل البادية في شئ، ولم يغيروا عليهم في يوم من الأيام. كما أن الدعوة للدين طريقها الدعاة والمبشرين وليس الفرسان المدججين.

ويتردد على السنة البعض أن الاقباط أصل المصريين، وهو قول صحيح؛ ولكنه يوحي بشئ غير صحيح، وكأن مسلمي مصر عرب وليسوا مصريين. وهذا خطأ يقع فيه من لم يقرأ التاريخ من مصادره الأولى، ويكتفى بما وصل اليه مزورا عبر مراحل التعليم المختلفة. لأن جميع العرب الذين دخلوا مصر كانوا بضعة الآف؛ بينما كان شعب مصر يعد بالملايين، وتحول اكثرهم الى الإسلام.

ونستدل مما ذكره إبن عبد الحكم في (فتوح مصر واخبارها) أن عمراً جبى مصر إثنتي عشر الف الف (12 مليون) دينار، دينارين عن كل رجل قادر على العمل. فيكون لدينا ستة ملايين رجل، غير النساء والاطفال والعجائز. فلوا ضرب العدد في ثلاثة يكون تعداد المصريين حوالي 18 مليون إنسان على الاقل. وقد تخلى معظمهم عن عقيدته لاسباب، جسدتها شروط العهدة العمرية، والحوادث التاريخية كما رواها المقريزي وغيره من المؤرخين.

وعلق ألفرد بتلر على معاهدة إستسلام المقوقس للعرب بقوله: "وقد كان عهد الصلح مع القبط كفيلاً من الوجهة النظرية بأن يكونوا آمنين في دينهم؛ غير أن الأمر صار بعد حين إلى خرق العهد ونقضه. فالحق أن الأمن في الدين إذا كان مقترناً بأن يكون الرجل مهيناً بين الناس، وأن يحمل ثقلاً في ماله، لم يكن أمناً حقيقياً ولا باقياً. فلما إنتشر الإسلام بين الناس، زادت وطأتهم إشتداداً على القبط. وأصبح عبء الجزية ثقيلاً، لا ترضاه النفوس. وأصبح أصحاب الجزية من اليهود والنصارى بعد حين، وقد صاروا في قلة ظاهرة، بسبب من كان يُسلم منهم عاماً بعد عام .."[1].

ولم تكن الجيوش الحجازية، أول الغزاة ولا آخرهم، فقد سبقهم الرومان؛ ولحقهم الفاطميون والايوبيون والمماليك والاتراك والانجليز. وذهب منهم من ذهب، في الحروب الداخلية والخارجية؛ ومن بقي منهم انصهر في بوتقة الشعب الاصيل الذي ما زال–بمسلميه وبمسيحييه–يحمل جينات اجداده المصريين. وما يقال عن المصريين، يقال عن الايرانيين، والعراقيين، والسوريين والأفارقة، وغيرهم.

---

1) الفريد بتلر، فتح العرب لمصر، صـ 478، 479.

وبمرور الوقت، ومع كثرة الفتن والحروب الداخلية والخارجية، كانت أعداد العرب في التناقص المتوالى، فالجنود في المعارك مثل الوقود: تحرق وتحترق، وكان يتم تعويض النقص من خلال تجنيد الموالي، والاطفال المخطوفين من الرقيق. فبدأ يغلب على الجيوش العناصر غير العربية من السودان والبربر والديلم والمماليك والاتراك؛ هؤلاء قدر لهم أن يتمصروا بالامصار التي جلبوا اليها وأن يقصوا العباسيين والعرب عن السلطة، ويحلوا محلهم مثل السلاجقة في الشرق، والفاطميين والبربر والمماليك والاتراك في مصر والغرب.

وفي البداية آثر أصحاب البلاد-الذميون- دفع الجزية على القتل أو ترك العقيدة. وتحت ضغط الاجحاف، وفي سنوات الضنك، كان البعض يبيع أرضه واملاكه، ومنهم من كان يبيع أولاده. ومنهم من كان يضطر الى تغيير دينه في أوقات الشدائد والاضطهادات. ولكن الجيل الجديد من ابناء المتحولين، كان ينخرط مع غير الذميين، وينسى ما لقيه اباؤه واجداده من اذلال وسوء معاملة. ومنهم من كان يؤذي إخوانه في الوطن ويعتدي عليهم وعلى كنائسهم، كما أخبرنا المقريزي وابن إياس وإبن تغري بردي وغيرهم من المؤرخين. وكما يفعل بهم الرديكاليون والارهابيون الى اليوم.

وبمرور السنين، نشأت عن الذميين المتحولين الى الإسلام طبقة أطلق عليها العرب اسم الموالي أي الموالين لهم. وقد تفوقت عددياً على الوافدين، وعلى من بقي على دينه من إخوانهم الوطنيين. وكان الموالي والذميون يثورون جراء التمييز، وكان الحكام يقابلون ثوراتهم بالنار والحديد. ناهيك عن التعصب الذي كان يدفع بالغوغاء الى التعدي على إخوانهم في الوطن. فكان كثيرون منهم يعتنقون الاسلام

لتفادي الاضطهاد ومن امثلة ذلك جرى في أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي حيث – كما جاء في تاريخ البطاركة لابن المقفع–جرى عليهم "ضيق عظيم، وطرد، وشتم، ولعن، من المسلمين، ويبصقوا في وجوههم. وكان أكثر ذلك بمدينة تانيس وأعمالها. وإذا جاز عليهم نصراني يشتموه"[1]. وعلق المقريزي على ذلك بقوله: "وفي هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى"[2].

وقال المقريزي أيضاً انهم في زمن السلطان قلاوون، كانوا "يركبون الحمير بزنانير في أوساطهم، ولا يجسر نصراني يحدث مسلماً وهو راكب، وإذا مشى فبذُلِّه، ولا يقدر أحد منهم يلبس ثوباً مصقولاً".

وفي عهد الإشرف خليل ابن قلاوون؛ كان بعض الاقباط يشتغل بالدواوين. وكان أحدهم ويدعى عين غزال، يعمل في ديوان الامير خاصكي. وحدث أن قام هذا الموظف بممارسة سلطته الوظيفية، والقى القبض على أحد السماسرة لأنه لم يسدد ثمن غلة الامير؛ فاستكثر العامة على هذا النصراني أن يشغل ذلك المنصب، وأن يمارس سلطته الوظيفية، "فتكاثروا عليه وألقوه عن حماره وأطلقوا السمسار".

ثم راحوا يشكونه الى السلطان الذي كلف الامير بدر الدين بيدرا النائب، باحضار جميع الكتبة النصارى ليقتلهم حرقا، ولكن الأمير اثناه عن ذلك، فقبل السلطان وساطة الامير على شرطين: "أن ينادي في القاهرة ومصر، أن لا يخدم أحد من النصارى واليهود عند أمير، وأمر الأمراء بأجمعهم أن يعرضوا على من عندهم من الكتاب النصارى الإسلام، فمن امتنع من الإسلام ضُربت عنقه، ومن

1) ساويروس إبن المقفع، تاريخ البطاركة، جـ2، صـ 111، 112.

2) المقريزي، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ3، صـ 277، 278.

أسلم استخدموه عندهم. ورسم للنائب بعرض جميع مباشري ديوان السلطان، ويفعل فيهم ذلك، فنزل الطلب لهم وقد إختفوا، فصارت العامة تسبق إلى بيوتهم وتنهبها، حتى عم النهب بيوت النصارى واليهود بأجمعهم، وأخرجوا نساءهم مسبيات، وقتلوا جماعة بأيديهم".

وإضطر عمال الدواوين أمام محكمة التفتيش الى تغيير دينهم خوفاً من الموت حرقاً. ويصف المقريزي ذلك بقوله: "فجاءهم الحاجب وأخذهم إلى مجلس النائب، وقد جُمع به القضاة؛ فجددوا إسلامهم بحضرتهم؛ فصار الذليل منهم بإظهار الإسلام عزيزا، يبدي من إذلال المسلمين والتسلط عليهم بالظلم ما كان يمنعه نصرانيته من إظهاره، وما هو إلا كما كتب به بعضهم إلى الأمير بيدرا النائب:

أسلم الكافرون بالسيف قهراً ... وإذا ما خُلُّوا فهم مجرمونا

سَلِموا من رَوَاحِ مالٍ وروحٍ ..... فهم سالمون لا مسلمونا.

فالشاعر يرى أن الذين اجبروا الموظفين على الإسلام بالسيف قهراً، وقتلوا إخوانهم، وسبوا نساءهم ونهبوا دورهم، كانوا على حق، بينما الذين اسلموا تحت التهديد بالموت حرقا هم المجرمون!

ولذلك فإن صحيح القول هو:

أسلم المؤمنون بالسيف قهراً..... وإذا ما خلوا فهم مجبرين

سلموا من رواح مال وروح ... ونجوا من الغوغاء والحاكمين

فهل عرفت الان كم قاسى ... أجدادك من فري الظالمين.

ونحو سنة 1354م، في سلطنة الملك الطالح ابن الناصر محمد بن قلاوون، تعرض الاقباط لموجة إضطهاد عنيفة، علق عليها المقريزي بقوله: "فلما عظم

البلاء على النصارى، وقلت أرزاقهم، رأوا أن يدخلوا في الإسلام. ففشا الإسلام في عامة نصارى أرض مصر، حتى أنه أسلم من مدينة قليوب خاصة في يوم واحد أربعمائة وخمسون نفراً...ومن حينئذ إختلطت الأنساب بأرض مصر، فنكح هؤلاء الذين أظهروا الإسلام بالأرياف المسلمات، وإستولدوهن. ثم قدم أولادهم إلى القاهرة، وصار منهم قضاة وشهود وعلماء"[1].

أخي المتطرف! إرجع الى التاريخ فلعلك تكون من احفاد اولئك المصريين الذين ظُلموا وتخلوا عن دينهم قهرا. فانك مصري، شئت أم ابيت. وكف عن التمييز والعنصرية، وعن ايذاء إخوانك في الوطن والإنسانية. لأن ما يحملك على إضطهاد إخوانك اليوم، هو بعينه ما حمل على إضطهاد اجدادك بالامس، واجبرهم على ترك دينهم.

---

1) تقي الدين المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ4، صـ 204– 207.

في ستينيات القرن الفائت، اندلعت في كندا ثورة ضد الكنيسة عرفت بإسم الثورة الهادئة. هذه الثورة قامت للتخلص مما وصفته بهيمنة الكنيسة ورجال الدين على مؤسسات الدولة. واستغلت سوء معاملة بعض الخارجين عن تعاليم الكنيسة لابناء السكان الاصليين. وقامت الثورة ليس ضد القلة الطالحة فقط بل وضد الكثرة الصالحة ايضاً، فأخذت العاطل بالباطل. ولم تشن حربها على الكنيسة فقط؛ بل وعلى المسيحية ايضاً التي هي بريئة من افعال بعض المنتمين اليها براءة الذئب من دم إبن يعقوب. ولم يثر الثائرون على المسيحية فقط بل وعلى الله ذاته. وكأن خدام الكنيسة من طغمة الملائكة، أو أنهم معصومون من الخطأ، أو أنهم جاءوا من كوكب آخر؛ وأنهم ليسوا من ابناء الشعب الكندي نفسه.

نحن لا نبرئ المذنب، وفي نفس الوقت لا يجب أن نذنب البرئ، ونأخذ الصالح بالطالح، ونساوي الحسن بالقبح. المسيحية بريئة من أخطاء المنتمين اليها لأنها تنهى عن الشر وعن شبه الشر. والكنيسة الكاثوليكية ملومة على أنها منعت زواج القسوس مخالفة بذلك شريعة الانجيل ووصايا الرسل.

وإذا كان السيد المسيح قال لأتباعه: ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا اباكم الذي في السموات. ومن ثم فإذا رأوا أعمالكم السيئة يبغضون دينكم ويجحدون ربكم، كما قال الاب متى المسكين "ان عثرة الخادم تسئ الى الخادم والى الخدمة والى رب الخدمة". وهو ما حدث في أُوربا من قبل، وما حدث في كندا من بعد؛ وما يحدث اليوم في الشرق والغرب.

وأخذت الثورة الهادئة–والهدوء ليس طبع الثورات–الصالح بذنب الطالح. وتجاوزت حد الاصلاح الى رفض المسيحية وما بها من قيم روحية خالصة فأحدثت فراغاً روحياً وحولت الانسان الى جسد يأكل ويشرب ويباضع ثم يموت وتنتهي حياته مثله مثل الحيوان.

على أن رجال الدين، ومثلهم في ذلك مثل القضاة والاطباء والمعلمين ورجال الشرطة وغيرهم من فئات المجتمع، يوجد فيهم كثرة صالحة وقلة طالحة. فإذا أخطأ منهم فرد أو مجموعة افراد فلا يكون من العدل ولا من العقل التخلص من هذه المؤسسات برمتها، فيُلغي القضاءُ وتُغلق المستشفيات والمدارس واقسام البوليس.

وإذا أخطأ معلم فليس العيب في التعليم، وإذا أخطأ قاضي فليس العيب في العدالة بل فيمن تجاوزها. وإذا صدر عن بعض رجال الكنيسة ما يخالف تعليم المسيح السامية، فلا يكون العيب في المسيحية ولا في رب المسيحية، بل فيمن تجاوز تعاليمها.

والأمر بوضوح كان في تعرض ابناء الشعوب الاصلية للايذاء البدني والاعتداء الجنسي من قبل بعض الخدام الوضعاء المغلوبين من شهوتهم. وهو سلوك شاذ لم يقتصر على هؤلاء المارقين فقط؛ بل انه لا يزال يتفشى في جميع بلاد العالم على إختلاف مللهم ونحلهم، وطبقاتهم الاجتماعية، ورجاتهم العلمية.

والتصرف الطبيعي في هذه الحالة يكون بإبعاد الجناة المتورطين وتوقيع العقوبة المناسبة عليهم، ووضع رقابة على البقية. وبخاصة أن المسيحية التي يحملون إسمها، والكنيسة التي ينتمون اليها تُحرم هذه الموبقات: "لا زناة، ولا عبدة أوثان، ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور، ولا سارقون، ولا طماعون، ولا

سكيرون، ولا شتامون، ولا خاطفون يرثون ملكوت الله"(1كو6). فما بالك بالتعدي على الصغار الذين نهى المسيح عن سوء معاملتهم عندما قال: "من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فخير له أن يعلق في عنقه حجر الرحى ويغرق في لجة البحر"(مت18). وليس ذلك فحسب بل انه أولى عناية خاصة بالاطفال فقال: "الحق اقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات".

وعندما أراد بعض التلاميذ أن يبعدوا الاطفال عن مزاحمته، قال لهم: "دعوا الأولاد ياتون الي ولا تمنعوهم لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله"(لو18).

ومن بواعث الثورة الهادئة اتهام الكنيسة بالإساءة الى المرأة، والى الكيان الأسرى برمته. وهذا الاتهام وسابقه، يترددان في الأوساط الاعلامية والتعليمية. فإذا قدر لك أن تدرس في أي مرحلة تعليمية بكندا فلابد لك أن تسمع من المعلمين والمعلمات عن جريرتي الكنيسة واحدة في حق الاطفال وأُخرى في حق النساء. كبيرتان لا تشفع فيهن براءة الاغلبية التي لم تتورط فيهما، ولا براءة النص الانجيلي منهما، ولا اسهامات الكنيسة، ودور الاباء الجزويت في النهوض بالمجتمع من خلال انشاء كافة المؤسسات التعليمية والصحية والقضائية والدينية خلال القرون المنصرمة. ولا إعتزارات كبار رجال الدين الصالحين عما بدر من قلة مارقة من ابنائهم. ولا نصوص الانجيل التي أولت عناية خاصة بالاطفال والنساء. ولا مساهمات الكنيسة وخدماتها التي قدمتها- ولا تزال تقدمها- للمرضى والمعوزين والفقراء ليس في كندا وحدها، بل ولفقراء دول العالم. ومع ذلك، فان الكنيسة في الغرب، هي الجهة الوحيدة التي لا يُحاسب من ينتقدها أو من يلعن ربها.

في ذات مرة قالت إحدى المحاضِرات ان الكنيسة كانت تجبر النساء على كثرة الإنجاب مما يزيد من أعباء الحمل والولادة والتربية على السيدات. وواقع الأمر أنه ليس من سلطة الكنيسة أن تجبر أحداً على الامور العامة فكيف لها أن تجبر على الامور الخاصة. ولكن من الممكن أن نقول أنها كانت تنصح وتشجع على الانجاب، ولا تملك أن تجبر أحدا عليه. فكل امرء على قدر طاقته. وقد كانت كثرة الإنجاب هي السمة الغالبة على كافة المجتمعات نظراً لانعدام وسائل منع الحمل آنذاك. كما أن المجتمع الكندي كان في حاجة ماسة الى الثروة البشرية ليس فقط في الستينيات وما قبلها بل والى الان. وفوق ذلك فإن الكثير من الناس الآن يقبلون طواعية على كثرة الإنجاب، على الرغم من وجود وسائل منع الحمل وضيق المسكن وضيق ذات اليد. كما هو الحال في افريقيا وجنوب شرق آسيا وأميركا اللاتينية. بل وهنا في كندا يقبل المهاجرون طواعية على إنجاب الاطفال إما بالوازع الفطري. وإما بدافع ايديولوجي كالحصول على المزايا العينية والاعانات المالية التي تُمنح للاطفال حتى يبلغوا السادسة عشر من عمرهم، الى جانب مجانية التعليم والرعاية الصحية. واما لهذه الأسباب جميعاً.

أما فيما يتعلق بالمرأة فلم يعط أحد حقاً للمرأة اكثر واعظم مما أعطتها المسيحية:

فأولا: لأن كلمة الله اتخذ من المرأة ناسوتاً ليفدي به الإنسان رجلاً كان أو إمرأة. وانه أولى عناية خاصة بالمرأة فشفى نازفة الدم، وتوب السامرية وغفر لها. ومنع الناس من رجم إمرأة زانية–وهو أمر لا يزال سارياً في بعض المجتمعات–، وتابت هي الأُخرى على يديه.

وثانياً، انه لم يعط للرجل الحق في الزواج بأكثر من إمرأة، ليصون حقوقها وكرامتها وإنسانيتها. كما أنه منع الطلاق إلا لعلة الزنى، في وقت كان القادرون من الرجال يتسرون بالجواري ويبدلون النساء كما يبدلون ثيابهم.

وثالثاً، ان القديس بولس اوصى أن يحب الرجل امرأته كما يحب نفسه وإن إضطر الى أن يفتديها بدمه، قال: "ايها الرجال احبوا نساءكم كما احب المسيح ايضا الكنيسة واسلم نفسه لاجلها..كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كاجسادهم من يحب امراته يحب نفسه. فانه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويربيه كما الرب ايضا للكنيسة..من اجل هذا يترك الرجل اباه وامه ويلتصق بامراته ويكون الإثنان جسدا واحدا. هذا السر عظيم"(اف5). وانسحبت الكنيسة من المشهد؛ ولكن مشاكل المجتمع التي ثار الناس من اجلها لم تنتهي بل زادت وسوف تزداد نتيجة لغياب القيم الروحية ولارتفاع سقف التحرر الى درجة اللامعقول.

ولا تزال الحرب الاعلامية في الغرب ضد الكنيسة قائمة. ولم يسلم شخص السيد المسيح نفسه من التهكم والازدراء. وهو الذي قدم مثالا للحب الباذل فكان يجول يصنع الخير ويبرئ الاكمه، ويطهر الابرص، ويشفي المقعد والأحدب، ويخرج الشياطين، ويهدي الضالين، ويشبع الجياع ويسقى العطاش الى البر من نعمته.

ولم يكن يصيح، ولا يسمع أحد في الشوارع صوته. ولم يقصف قصبة مرضوضة، ولم يطفئ فتيلة مدخنة. ولم يأتي ليقتل الناس بل جاء ليطلب ويخلص ما قد هلك. ولم يحرض الناس على الكراهية والعداء، بل دعاهم الى محبة الاقربين والأعداء. والذي تجسدت فيه الرحمة والحق والعدل. ولم يأخذ شيئاً لنفسه فلم يكن له اين يسند رأسه. واخيرا قدم ذاته فداءا عن البشرية.

ومما يدعوا الى الغرابة، أنه، وبعد مرور ستين عاما على الثورة الهادئة، ومع الانسحاب التام للكنيسة من الحياة السياسية، واقتصار ما بقي من اشلائها على أداء الخدمات الإجتماعية. وعلى الرغم من انتشار الشذوذ والمخدرات وارتفاع سقف الجريمة والاغتصاب، إلا أننا لا نزال نسمع الانتقادات توجه الى الكنيسة– كما الضرب في الميت– في كل يوم وفي كل فصل من فصول الحياة.

وفي نفس الوقت لا يعير المنتقدون انتباها للمشكلات التي تهدد سلام العالم وامن المجتمعات. مثل التطرف والارهاب، وتعدد الزوجات، وزواج القاصرات، وإضطهاد الاقليات، وانعدام حرية الاعتقاد في كثير من دول العالم الافريقي والأسيوي.

وفي الوقت الذي لا تكف الحكومة الليبرالية عن مطالبة الكنيسة بالاعتزار عما بدر من بعض خدامها قبل ستين عاماً، مما يخالف تعاليم الكنيسة والنصوص المقدسة، والذي إعتذرت عنه مراراً وتكراراً، تراها تكيل بمكيالين فتتعامل بمنتهى العطف والإنسانية مع الارهابيين الكنديين العائدين بعد هزيمة التنظيم الذي هاجروا اليه. وتطلقهم في المجتمع قبل اعادة تأهيلهم. فإذا كانت قادرة على التصالح مع الارهابيين، فلماذا تستعدي الكنيسة ؟! وإذا كانت قادرة على أن تصنع سلاماً مع أهل الحرب، فلماذا تشن حرباً ضد أهل السلام ؟!

وعلى الرغم من ذلك، وانطلاقاً من موضوعية النقد، لا ننكر على الحكومة الليبرالية بعض الايجابيات، ومنها موقفها الإنساني، واستقبالها للاجئين من سوريا والعراق وافغانستان وباكستان، وغيرها، بعدما اوصدت بلاد الشرق المؤمن أبوابها في وجوههم.

ليس المثقف هو من يحشى جمجمته بقدر كبير من المعلومات أو من الأشعار والنصوص والمحفوظات التي يمكنه أن يتلوها عليك عن ظهر قلب. وليس هو ذلك الشخص الذي يقرأ التاريخ من كتاب واحد، ولا الذي ينظر للامور من جهة واحدة. وليس هو من يتعصب لفكرة أو لمعتقد دون تبصر واستبصار؛ ولا هو من ينساق للرأي الجماهيري سوق الخراف لموردها. ولا هو الذي يؤمن بالمتناقضات فيطرح لك الفكرة ونقيضها في حديث واحد؛ ويستميت في الإقناع بأمر يرفضه العقل ويلفظه الضمير. ولا هو من يرفع من شأن الباطل فيبرئ المذنب، ويحط من مقام الحق، فيذنب البرئ. وليس هو من يكيل بمكيالين ويعير بمعيارين، منطلقا من أُحادية التفكير وثنائية المعايير؛ وليس هو من يحيل كل شئ الى ذاته، بدلاً من أن يزن افكاره وثوابته بميزان العقل ويطابقها بمقاييس المنطق وبمبادئ التفكير الحر.

المثقف هو من يفعل نقيض ما ذكرت: هو الذي ينظر في القضايا نظرة موضوعية حيادية لا تتقيد بالعقل الجمعي، فلا يعتد به عند البحث عن الحقيقة؛ بل ان الحقيقة عنده أولى من جميع الناس كما قال أرسطو عن معلمه افلاطون " اني احب افلاطون واحب الحق ولكن حبي للحق أعظم ".

ولذلك فان دراسة الفلسفة والمنطق من شأنهما أن يمرنا الإنسان على التفكير الحر ويكسبانه القدرة على التحليل والنقد والإستنتاج، ويحفزان العقل على الإنتقال من مرحلة التفكير البدائي الخرافي الى التفكير العلمي الواعي. فلا يزال اكثر الناس، في المجتمعات النامية فكرياً واقتصادياً وإجتماعياً ونفسيا، يسقطون

أخطاءهم وخطياهم وجرائمهم – التي يأتونها بكامل ارادتهم – على غيرهم أو يلقون بها على كاهل الشيطان. ويعزون فشلهم إلى أعين الحاسدين واعمال الجن والشياطين.

في الماضي كان الناس يلجأون الى التعاويذ السحرية للوقاية من الشرور والمصائب. كما كان قدماء اليونانيين يضعون رأس الميدوزة على أعتاب بيوتهم، وفي مقابرهم –كما في مقبرة الكتاكومب الموجودة بمنطقة كوم الشقافة بالإسكندرية–إعتقادا منهم في قدرتها على الإطاحة بمن يضمر الشر لهم ولممتلكاتهم.

ولا يزال أحياء القرن الواحد والعشرين يأخذون باسباب العقل البدائي، فيعلقون عيناً زرقاء وخمسة وخميسة، في سياراتهم، وعلى أبواب بيوتهم، إعتقادا منهم بأن لهذه الطواطم، القدرة على درء الشر والوقاية من أعين الحاسدين. وفي ذات الوقت لا نخجل من انفسنا عندما نتشدق بالإيمان بالله القادر والحافظ والمهيمن على كل شيئ.

وإذا كنا نؤمن بالعناية الإلهية، ولا تهتز فيها ثقتنا؛ لما كنا نهرول كل صباح الى قراءة الحظ والطالع ونحن على ثقة بما رصدته لنا النجوم. ولما كنا نلجأ الى عين زرقاء لا تضر ولا تنفع.

والعقلاء، لا يقبلون مثل هذه الاعتقادات، لأنها تفتقر إلى البرهان المنطقي. ولأنها تنقض الإيمان بالله وتهدم الثقة في عنايته بنا. كما أنهم لا يعتقدون في الحسد بفهومه الشائع بين الناس والذي لا يجد له مستقرا إلا في عقول البسطاء.

والذين يؤمنون بالحسد، يتعللون بأنه قد ورد في الكتب السماوية؛ كما في حسد بني يعقوب لأخيهم. وحقيقة الأمر أن الحسد المشار اليه هنا هو حقد تبعه فعل خبيث. وليس كما يشيع عندنا اليوم أنه متى وقعت عين الحاسد على شئ افسد. وذلك لا ينطبق على حسد بني يعقوب لاخيهم. فلم تصب أعينهم الفتى ولا قميصه بسوء، بل ان حقدهم عليه هو ما جعلهم يحتالون عليه؛ فكان من سوء فعلهم ما قبح وشان، وكان من أمر الله ما افلح وزان.

ولو كانت العين تضر المحسود – وليس الحاسد – لما كنا نرى اثرياءً يتفاقم ثراءهم يوما بعد يوم، ولما كنا نرى ناجحين يزداد نجاحهم عاما بعد عام، وها هي أعين الحاقدين تترقبهم بالمرصاد!

وفي الواقع ان الحسد (الحقد) يضر الحاسد(الحاقد) وليس المحسود. ويصيبه بالحزن وبخيبة الامل واحيانا بالاكتئآب ان هو استسلم للفكر اللاعقلاني وتمادى في حسده وحقده. وهذا ما يريده الشيطان !

وربما يتزامن حدوث مكروه لشئ نملكه في بيوتنا على أثر قدوم بعض الأشخاص لزيارتنا. وقد يتكرر ايضاً. وهذا في رأيي يرجع لسببين: أولهما الصدفة البحتة، وثانيهما عمل الشيطان. ذلك لأن الشيطان هو من يستطيع أن يؤثر في الأشياء دون أن نراه، وهو يريد أن ينتزع المحبة من قلوب الناس، ويزرع الكراهية بينهم. فيكون هو الفاعل والمتصرف، وليس أعين الضيون.

ولماذا يترك الله الشيطان يفعل بنا ذلك ؟

اعتقد أن الله يسمح له بذلك ليختبر إيماننا، أو لأننا ابتعدنا عن الله فتخلى عنا. ومن شواهد هذا الابتعاد، عدم ثقتنا بعنايته بنا وخوفنا من أعين الناس. وهي

معادلة بسيطة: الخوف من أعين الحاسدين = عدم الثقة في عناية الله.

ولذلك فعندما يحدث لك مكروه عند قدوم بعض الأشخاص لزيارتك، فاعلم أن الشيطان هو الفاعل في حضورهم لكي تكرههم. ولذلك عليك أن تُحَصِّن نفسك، ليس من أعين زائريك، وانما من مكر الشيطان؛ وليس بعين زرقاء، ولا بخمسة وخميسة، وسبعة وسبيعة، بل بمراجعة نفسك، وباستعادة ثقتك في عناية الله بك وبحفظه لك.

والحسد، ليس هو الشئ الوحيد الذي يوغر به الشيطان قلوب الناس لاحداث الوقيعة بينهم؛ لكنه، أي الشيطان، ومن خلال خبرته الطويلة مع بني آدم، لمدة سبعة الآف سنة، التقى خلالها بمليارات الأشخاص؛ وعبث بملايين العقول. فإنه يزرع الكراهية والعداء من خلال افكار نبيلة، أو تبدوا لنا كذلك، كفكرة القومية والهوية، كمرادف مقبول للعنصرية، وعلى رونقها قامت النازية والفاشية، وحربين عالميتين، وما ادراك ما هما.

وتحت شعارات براقة مثل نشر الديموقراطية، وبسط العدل والحق، ومحاربة الكفر، والدفاع عن الله، والزود عن العقيدة، وغير ذلك، قامت حروب طاحنة، قُتل خلالها ملايين الرجال، ونُهبت الاموال، وسُبيت النساء والعيال، وأُثكلت العجائز، وهُدمت الركائز، وعُمرت اسواق النخاسة، ووطئت النساء، وفُضت الابكار، وارتعدت فرائض الكبار والصغار، واقتلعت الأشجار، واتلفت الثمار، وادميت الأنهار. وخربت القصور، واحرقت الكنائس والديور.

وفي العصور القديمة، ساد الاعتقاد بوجود علاقة تلازمية بين ظاهرة الموت وسقوط النجوم. وقد اثبت العلم المناهض للخرافات، ان هذا النجم الذي نراه يهوي،

قد انفجر قبل أن يُخلق الإنسان بملايين السنين. ونظرا لحجمه الهائل ولبعده الكبير عن كوكبنا لهذا راينا وميض هذا الانفجار بعد مرور تلك الملايين من السنين. وهي المدة التي استغرقها نور النجم الهاوي من الفضاء الى مرآنا.

ولا يزال الناس في مختلف بقاع الأرض يتشاءمون وتفاءلون من اشياء لا تضر ولا تنفع، ويستعيضون على العلم بالخرافة، التي لا تتفق، ليس فقط مع ما وصل اليه العالم من تقدم، ولا مع ما حصلوا عليه من زخم معرفي، بل لا تتفق مع المبادئ الأولية للتفكير الراشد. وقد نجح البعض في التخلص من براثن التخلف القاهر الذي تفشى في بعض المجتمعات واصاب انصاف المتعلمين وغير المتعلمين؛ ولكنهم لم يسلموا من بطش رعاة الجهل، ومصدري الرجعية. وكما يذكر كارل ساجان عن توماس آدي قوله في خطورة الجهل على المجتمعات ان " الأمم تهلك من جراء الافتقار الى المعرفة ... فالبؤس الذي تتحاشاه الإنسانية، لا يرجع السبب فيه للحماقة بقدر ما يرجع للجهل، وخاصة جهلنا بأنفسنا...".

وعلى عكس ما يروج له البعض ممن يخيفون الناس من المنطق والفلسفة ويمنعون تدريسهما، بدعوى أنهما يتقودان الى الالحاد، فان دراسة هذين العلمين ضرورة لكل إنسان، لأنهما يفرزان الحق من الباطل، ويرتقيان به من المحسوس الى المعقول فيقربانه من الالهيات، ويصقلان العقول ويرسخان الإيمان، فلا ينقاد المرء الى كل ما يُعرض عليه من افكار انقياد الدواب للمورد، ولكنه ينظر ويحلل ويفحص ويستنتج.

ومع رجاحة العقول تتسع الصدور، ولا نقف عند الأسباب الظاهرة للظاهرة، ولا نعمم الاحكام دون تبصر كأن نحكم على مجتمع بالانحراف لأن بعض افراده

منحرفون. ولا نحكم على دولة ما بالارهاب، لأن بعض أفرادها ارهابيون. ولا نعادي شعباً لأن حكومته فاسدة. ولا ننعت بالبهتان من يخالفنا الرأي والعقيدة، ونحن لم نقف على حقيقة ما يعتقدون به. ولا نقرأ التاريخ بعواطفنا بل بعقولنا. ولا نقرأة من كتاب واحد، ولا نبتر قصصه، فنظهر ما يعجبنا ونخفي ما يغضبنا؛ ونبرئ المذنب لأنه منا، فننفي عنه الظنون، ونذنب البرئ لأنه ليس منا، ونكيل له الطعون.

ولا ننساق وراء الشائعات دون التحقق من صحتها؛ ولا نقبل كل ما نسمعه أو نقرأه قبول الساذج دون فحص أو نظر عقلي مهما كان مصدره، ومهما كانت الثقة في قائله أو في كاتبه. لأن ذلك لا يصدر عن عقول واعية تتبصر، بل عن عقول واهية تتعثر.

وثبات التأخر

تتسم المعارف والعلوم الإنسانية بالتراكمية والتطور المستمرين، فالعلوم مثل الكائن الحي الذي يولد صغيرا ثم ينموا وينضج. وبعض النظريات تهن وتتلاشى، وبعضها يصبح حقائق وبدهيات، ويبقى مدى الدهر.

وعندما نطالع تاريخ التطور العلمي، نلاحظ أنه يقوم على التراكميات ولا يخلو من الوثبات. ومما يؤكد اهمية مبدأ التراكمية في مجال البحث العلمي، هو أن الباحث والعالِم لا يولد باحثا وعالما؛ وانما لابد وأن يطلع على ما سبقه من ميراث علمي في مجال بحثه، وما يتصل به من مجالات. ولابد له أن يمعن النظر في كل ما يصل اليه من معارف حتى يتمكن من اضافة حجر في البناء العلمي، وإلا ما زاد دوره عن كونه ناسخ عمن سبقوه، وناقل ممن عاصروه. وفي هذه الحالة، يكون مجرد ذاكرة لا يزيد حجمها – مهما بلغت معارفه – عن مليمترات في كارت ميموري يمكن حمله على عقلة الاصبع.

واحيانا يقوم العالِم بهدم الجدار المعرفي برمته عندما يتبين له ما به من تصدعات وتراهات فيعيد البناء من جديد–بعد تفكيكه– وفقا للاسس الجديدة التي يضعها محدثا بذلك وثبة علمية تساهم في التطور العلمي والحضاري للإنسانية، كما فعل أرسطو، والفارابي، وغبن سينا، وأرشميدس، وفيثاغورس، وإقليدس، والخوارزمي، و كوبرنيقوس، وجاليليو، ونيوتن، وديكارت، وفرنسيس بيكون، وإيمانويل كانت، ولافوازييه، وأليسندر فولتا، وأندريه أمبير، وتوماس إديسون، وماري كوري، ولويس باستور، وجراهام بيل، ونيقولا تسلا، وجيمس كلارك ماكسويل، ومصطفى مشرفه، وأحمد زويل، ومجدي يعقوب وغيرهم.

ويصعب-وربما يستحيل- على المرء أن يحصر كل الوثبات المعرفية في تاريخ الإنسانية، وفي مجالات العلم المتعددة؛ ولكن اشهر تلك الوثبات بات معروفاً لرواد المدارس والجامعات.

وقد ظل العاملون في الحقل العلمي يعتقدون، لاكثر من الفي عام، بما قاله أرسطو من أن الاجسام تسقط على الأرض بسرعات متفاوتة على حسب كتلاتها. ثم جاء جاليليو واثبت أن الاجسام تهوي الى الأرض بسرعة ثابتة مهما إختلفت كتلتها، ما لم يوجد مانع آخر يحد من سرعتها مثل الهواء. فكانت تلك وثبة علمية غيرت مسار الفزياء.

وقديما كان بسطاء الناس ولبابهم يعتقدون أن الأرض تتوسط الكون، وأنها مسطحة، وثابتة؛ وأن الشمس تدور حولها. ولابد أن من سمعوا عن كرويتها من خلال بارمينيدس أو من غيره، قد إعترتهم الدهشة، وإختلفوا فيما بينهم بين مصدق ومكذب. وهو أمر لا يلام عليه قوم لم يكن نظرهم يتعدى مرمى بصرهم. ومع ذلك، فقبل نحو ثلاثة الآف عام خلون، اشار سفر اشعياء الى كروية الأرض في ثنايا الحديث عن قدرة الله: "الجالس على كرة الأرض"(اش40).

وتدل الشواهد الأثرية على أن كروية الارض كانت معروفة عند حكماء المصريين والبابليين والهنود في الزمن القديم، ممن اشتغلوا بالفلك قبل بارمينيدس الذي جاء بعد اشعياء بأكثر من قرنين.

ثم حدثت بعد ذلك وثبات علمية برهنت بشكل عملي ومحسوس على كرويتها، وعلى مركزية الشمس، من خلال ابحاث كوبرنيقوس، وجاليليو. وتأكدت تلك الحقيقة بفضل حركة الكشوف الجغرافية التي قادها البرتغال والأسبان قبل أربعة

قرون. ثم اضحت من البدهيات المعرفية بفضل الالة الحديثة التي غزت الفضاء ورصدت نجوم السماء.

ولكن هذه الوثبات العلمية تستلزم أولا تحرير العقل، وحماية العلماء والباحثين والمفكرين من بطش المتربصين بكل من يضئ شمعة في سبيل العلم فيسحقوه ويسحقوها خوفاً من أن يتراءى للناس جهلهم في نور العلم.

قديما كان الناس يعتقدون أن القمر جسم منير بذاته، ولكن تبين أنه كوكب معتم مثل الأرض. وأنه يضاء بنور الشمس، وأن خسوفه لا يرجع الى غضب الالهة وانما لوقوع الأرض حائلا بينه وبين نور الشمس.

وكان المتبصرون من الناس يعتقدون أن النجوم أصغر كثيرا من حجم الأرض. وكان عامتهم يعتقدون أن أحجامها لا تزيد كثيرا عما يراه الشاهد، وأنها تنطفئ حزنا لموت الناس. والان بات بديهياً أن النجوم المبعثرة في الكون تبلغ أحجاماً هائلة بحيث أن أصغر نجم فيها وهو الشمس، يمكنه أن يبتلع مليون كوكب بحجم الأرض. وأن الثقوب السوداء تبتلع نجوما اكبر من الشمس بملايين المرات. وأن النجوم تولد وتموت، وأن لها دورة حياة تستمر مليارات السنين. وأن النجم الذي يراه الشاهد هاوياً في السماء، قد انفجر منذ ملايين السنين، وأن وميض انفجاره بلغ أرضنا بعد مرور تلك السنين للبعد الهائل بيننا وبينه.

وقديما كان الناس يعتقدون أن السماء سقف للأرض، وجاء في كتاب التلمود أن المسافة بينها وبين كوكبنا تقدر بمسيرة خمسمائة عام مشياً على الاقدام، هي عندهم حاصل مجموع أعمار الانبياء الكبار: ابراهيم(175 سنة)، واسحق (180)، ويعقوب(147سنة)، وهو قول لا يستقيم مع الحقائق الفلكية والكونية المكتشفة،

والتي اثبتت أن الأرض ما هي إلا كرية معلقة في الفضاء، كما كتب في سفر ايوب قبل اكثر من ثلاثة الآف عام: "يعلق الأرض على لا شيء"(اي26)، واثبتت أن المسافة بين الأرض والشمس، وهو اقرب النجوم الينا، تبلغ مئة وخمسين مليون كيلومترا. وإذا افترضنا أن الإنسان يمشي على قدميه بلا توقف، لقطع تلك المسافة في اكثر من أربعين الف سنة. وإذا كان قطر مجرة الطريق اللبني يقدر بمئة الف سنة ضوئية، فماذا يكون قطر الكون الذي يحتوي على ملايين المجرات، والتي تتبعثر في سمائها ملايين النجوم. واين كل ذلك من السموات ومن سماء السماوات !

ولابد أن نفرق بين الموروثات المعرفية، وبين الحقائق العلمية، فالمعارف التي تصلنا سواء من الماضي أو ممن يسيرون في ركابه شئ، والحقائق العلمية شئ آخر، وخاصة عندما نتحدث عن امور تجريبية ملحوظة ومحسوسة. فقد يجد الماضويون في الميتافيزيقيا ساحة يعبثون فيها بعقول البسطاء الذين يجحظون عيونهم، ويفغرون شفاههم مهلليين مكبرين؛ ولكن عندما ينازلون في ساحة العلم التجريبي تنذري هباءات افكارهم في عواصف الحقائق العلمية. وتتحطم افكارهم على صخرة التجربة المادية.

وفي اوآخر الالفية الثانية بعد الميلاد، ومع هذا التقدم العلمي الهائل، فقد شهد العالم لوثبة معرفية هائلة، عندما نشرت الرئاسة العامة لادارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالرياض في عام 1982، كتاباً من تاليف الشيخ بن باز يقول فيه:"اجمعت اراء السلف من امثال شيخ الإسلام إبن تيمية وابن كثير وابن القيم على ثبوت الأرض. من هنا، أن القول بان الشمس ثابتة، وأن الأرض دائرة،

هو قول شنيع ومنكر. ومن قال بدوران الأرض، وعدم جريان الشمس فقد كفر وضل، ويجب أن يستتاب؛ فان تاب، وإلا قتل كافرا مرتدا. ويكون ماله فينا لبيت مال المسلمين".

وقال ايضا:"ان كثيرا من مدرسي علوم الفلك ذهبوا الى القول بثبوت الشمس ودوران الأرض؛ وهذا كفر وضلال؛ وتكذيب بالكتاب والسنة واقوال السلف. وقد اجمع في هذا الأمر العظيم النقل والفطرة وشاهد العيان فكيف لا يكون مثل هذا كافرا ".

وقال الشيخ عبد الكريم بن صالح الحسيد في كتابه(هداية الحيران في مسألة الدوران): "العلوم العصرية عامة، علوم عمت بها البلوى. منها علوم مفسدة للاعتقاد كالقول بدوران الأرض وغيره من علوم الملاحدة ".

ترى ما الذي يجعل علماءهم يثبون للامام، وما الذي يجعل علماءنا يتقهقرون للخلف ؟!

ان السبيل الامثل للقضاء على الجهل والتطرف يكمن في ضرورة اعمال العقل والدراسة في كل ما أخذناه بالتلقين والوراثة.